

القصة الأندلسية

نماذج مع دراستها دراسة تطبيقية

د. عبد الله بن علي بن ثقفان ⁽¹⁾، السعودية

I - النماذج - المختارات -

1- لذريق يأخذ ابنة يوليان :

كان من سير الأعاجم بالأندلس أن يبعث أكابرهم بأولادهم إلى بساط الملك ليتأدبوا بأدبه، وينالوا من كراماته حتى إذا ما بلغوا أنكح بعضهم بعضا استئلافاً لأبائهم، وحمل صدقاتهم وتولى تجهيز إناثهم إلى أزواجهن، فاتفق أن فعل ذلك يليان عامل لذريق على سبته، وجه ابنة له بارعة الجمال تكرم عليه، فوَقَّعت عين لذريق عليها فأعجبته فاستكرهها على نفسها واحتالت حتى أعلمت أباهَا بذلك سرا بمكاتبة خفية، فأحفظه شأنها وقال : ودين المسيح لأزِلن سلطانه ! وكان امتعاضه من فاحشة ابنته السبب لفتح الأندلس بالذي سبق من قدر الله سبحانه، ثم إن يليان ركب بحر الزقاق من سبته في أصعب الأوقات في شهر ينيّر، وأقبل حتى احتل بطليطلة حضرة لذريق، فأنكر عليه مجيئه في ذلك الوقت وسأله عن السبب في ذلك، فذكر له أن زوجته اشتد شوقها إلى ابنتها التي عنده، وتمنت لقاءها قبل الموت، وألحت عليه في إحضارها، وأحب إسعافها بها، وسأل الملك إخراجها إليه وتعجيل إطلاقه للمبادرة بها. ففعل وأجاز الجارية، وتوثق منها بالكتمان عليه، وأفضل عليها وعلى أبيها وانقلب عنه وذكر أنه لما دخل عليه قال له لذريق : إذا أنت قدمت علينا فاستقره لنا من الشذائقات. فقال له : أيها الملك، والمسيح لأدخلن عليك شذائقات ما دخل عليك بمثلها

(1) أستاذ الأدب الأندلسي المشارك : قسم الأدب، كلية اللغة العربية. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض - عضو هيئة التحرير بمجلة : دراسات أندلسية.

قط ! يعرض له بما أضمر من السعي في إدخال رجال العرب الأندلس عليه، وهو لا يفتن ؛ فلم يتنهه يليان إذ وصل سبته أن تهيأ للمسير نحو موسى بن نصير، فأتاه بإفريقية، فحرضه على فتح الأندلس ووصف له حسناتها وفوائدها وفضلها، وهون عليه حال رجالها، فعاقده موسى على الانحراف إلى المسلمين وسامه مكاشفة أهل ملته من أهل الأندلس، ففعل يليان ذلك وحل بالجزيرة الخضراء، فقتل وسبى وغنم وأقام بها أياما يشن الغارات، وشاع الخبر عند المسلمين، فأنسوا بيليان وذلك عقب سنة 90.

وكتب موسى بن نصير إلى الوليد يعلمه بما دعاه إليه يليان ويستأذنه في افتتاح الأندلس، فكتب إليه الوليد أن خضها بالسرايا حتى تختبر ⁽¹⁾ شأنها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال، فراجع أنه ليس ببحر وإنما هو خليج يتبين للناظر ما وراءه، فكتب إليه : وإن كان، لابد من اختباره بالسرايا ! فبعث موسى عند ذلك رجلا من مواليه من البربر اسمه طريف بن ملوك المعافري يكنى أبا زرة في أربعمئة رجل فعبر بهم ونزل في الجزيرة المنسوبة إليه؛ ثم أغار على الجزيرة الخضراء ونواحيها فأصاب سببا لم ير موسى فيما أصابه مثله حسنا، وأصاب مالا جسيما وأمتعة، وذلك في شهر رمضان من سنة 91 ⁽²⁾.

2- الابنة الحكيمة :

"كان بنواحي غرب الأندلس ملك يوناني بجزيرة يقال لها «قادس» وكانت له ابنة في غاية الجمال، فتسامع بها ملوك الأندلس، وكانت الأندلس كثيرة الملوك، لكل بلدة أو بلدين ملك، فخطبوها، وخشي أبوها إن زوجها من واحد أسخط الباقين، فتحير، وأحضر ابنته ؛ فقال لها : يا بنية، إنني أصبحت في حيرة من أمرك ممن يخطبك من الملوك، وما أرضيت واحدا إلا أسخطت الباقين، فقالت له : اجعل الأمر إلي تخلص، فقال : وما تقترحين ؟ فقالت : أن يكون ملكا حكيما، فقال : نعم ما اخترته لنفسك.

(1) ت و م : «يختبر».

(2) من كتاب : صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ص 7-8.

فكتب في أجوبة الملوك الخطاب، أنها اختارت من الأزواج الملك الحكيم، فلما وقفوا على الجواب سكت من لم يكن حكيماً، وكان في الملوك الخاطيين حكيماً، فكتب كل واحد منهما : أنا الملك الحكيم، فلما وقف على كتابيهما قال لها : يا بنية، بقي الأمر على إشكال وهذان ملكان حكيماً، أيهما أرضيت أسخطت الآخر فقالت : سأقترح على كل واحد منهما أمراً يأتي به فأيهما سبق إلى الفراغ مما التمتست كنت زوجته، قال : وما الذي تقترحين عليهما ؟ قالت : إنا ساكون هذه الجزيرة ومحتاجون إلى أرحي تدور بها وإني مقترحة على أحدهما إدارتها بالماء العذب الجاري إليها من ذلك البر، ومقترحة على الآخر أن يأخذ لي طلمسا نحصن به جزيرة الأندلس من البربر فاستصرف أبوها ذلك، وكتب إلى الملكين بما قالت ابنته، فأجاباه إلى ذلك، وتقاسماه على ما اختارا، وشرع كل واحد منهما في عمل ما أسند إليه من ذلك.

فأما صاحب الرحي فإنه عمد إلى أشكال اتخذها من الحجارة نضد بعضها إلى البعض في البحر المالح الذي بين جزيرة الأندلس والبر الكبير في الموضع المعروف بزقاق سبتة، وسدد الفرج التي بين الحجارة بما اقتضت حكمته وأوصل تلك الحجارة من البر إلى الجزيرة وأثارة باقية إلى اليوم في الزقاق الذي بين سبتة والجزيرة الخضراء وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثر قنطرة كان الإسكندر قد عملها ليعبر عليها الناس من سبتة إلى الجزيرة، والله أعلم أي القولين أصح غير أن الشائع إلى الآن عند الناس هو الثاني - فلما تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم جلب الماء العذب من جبل عال في البر الكبير وسلطه من ساقية محكومة وبني بجزيرة الأندلس رحي على هذه الساقية.

"وأما صاحب الطلمس فإنه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصد الموافق لعمله غير أنه عمل أمره وأحكمه، وابتنى بنياناً مربعاً من الحجر الأبيض على ساحل البحر في رمل عالج حفر أساسه إلى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت، فلما انتهى البناء المربع إلى حيث اختار صور من النحاس الأحمر والحديد المصفى المخلوطين بأحكم الخلط صورة رجل بربري، وله لحية، وفي رأسه ذؤابة من شعره

جَعَد قائمة في رأسه لجعودتها وهو متأبط بصورة كساء قد جمع طرفيه على يده اليسرى بالطف تصوير وأحكمه، في رجله نعل، وهو قائم من رأس البناء على مستهدف (1) بمقدار رجليه فقط، وهو شاهق في الهواء، طوله نيف عن ستين أو سبعين ذراعا، وهو محدود (2) الأعلى، إلى أن انتهى ما سعته قدر ذراع، وقد مَدَّ يده اليمنى بمفتاح قفل قابضاً (3) عليه مشيراً إلى البحر كأنه يقول لا عبور، وكان من تأثير هذا الطلمس في البحر الذي تجاهه أنه لم ير قط ساكناً ولا كانت تجري فيه قط سفينة بربر حتى (4) سقط المفتاح من يده.

وكان الملكان اللذان عملا الرحي والطلسم يتسابقان إلى فراغ العمل، إذ بالسبق يستحق زواج المرأة، وكان صاحب الرحي فرغ أولاً لكنّه أخفى أمره عن صاحب الطلمس لئلا يترك عمله فيبطل الطلمس، لتحظى المرأة بالرحي والطلسم فلما علم اليوم الذي يفرغ فيه صاحب الطلمس في آخره أجرى الماء في الجزيرة من أوله وأدار الرحي، واشتهر بذلك، فاتصل الخبر بصاحب الطلمس وهو في أعلى القبة يصقل وجهه، وكان الطلمس مذهبا، فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتاً، وحصل صاحب الرحي على المرأة والرحي والطلسم (5).

(1) ابن خلكان : مستدق.

(2) ك : محدوب

(3) في الأصول : قابض.

(4) في الأصول : إلا.

(5) من النفح.....، ج 1، 244 - 246.

3- حسان (1) ... والكاهنة (2) :

أباد حسان بن النعمان ملوك البربر والروم (3)، ثم دخل (القيروان) وسأل أهلها عن بقي من أعظم ملوك إفريقية ليسير إليه فيبيده أو يسلم، فدلوه على امرأة بجبل (أوراس) يقال لها الكاهنة، وجميع من بإفريقية من الروم منها خائفون وجميع البربر لها مطيعون ثم قالوا له : إن قتلتها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضاد ولا معاند، فدخل بجيوشه إليها وبلغ الكاهنة خبره، فرحلت من الجبل في عدد لا يحصى ولا يبلغ بالاستقصاء، وسبقته إلى مدينة (باغاية)، فأخرجت منها الروم وهدمتها وظنت أن حسانا يريد مدينة ليتحصن بها منها فبلغ خبرها حسانا فنزل بواد (مسكيانة)، فرحلت الكاهنة حتى نزلت إلى الوادي المذكور، فكان هو يشرب من أعلى الوادي وهي من أسفله فلما توافت الخيل دنا بعضهما من بعض فأبى حسان أن يقتلها آخر النهار فبات الفريقان ليلتهم على سروجهم، فلما أصبح الصباح التقى الجمعان، فتقاتلوا قتلا لم يسمع بمثله وصبر الفريقان صبرا لم ينته أحد إليه، إلى أن انهزم حسان ومن معه من المسلمين وقتلت الكاهنة العرب قتلا ذريعا، وأسرت ثمانين رجلا من أعيان أصحابه، وسمي ذلك الوادي (وادي العذارى)، واتبعته الكاهنة حتى خرج من عمل قابس فكتب حسان إلى أمير المؤمنين (عبد الملك ابن مروان) (4) يخبره بذلك، وأن أمم الغرب

(1) هو : حسان بن النعمان بن عدي بن بكر بن مغيث بن عمرو من الأزد، من التابعين، ويلقب بالشيخ الأمين. انظر ما كتب عنه وعن نسبه وحياته في كتاب (حسان بن النعمان الغساني ودوره في فتح بلاد المغرب).

(2) هي دهايا بنت ماتيية بن تيفان، ملكة جبل أوراس. انظر ما كتب عنها في الكتاب السابق الصفحات من 111 - 114.

(3) القصة هذه منقولة بتصريف عن : البيان المغرب...، ج1، ص 35 - 39، وكان صاحب كتاب (حسان بن النعمان الغساني...) قد أشار إليها في الصفحات من 111 - 114.

(4) عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي (26/ 646 - 86/ 705) انظر : الأعلام، ج4، ص 165، وقد أشار في هامش الصفحة المذكورة لمصادر الترجمة لهذا الخليفة.

ليست لها غاية ولا يقف أحد منها على نهاية، كلما بادت أمة خلفتها أمم، وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم.

وملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين، فلما رأت إبطاء العرب عنها قالت للبربر "إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدن والذهب والفضة ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي!! فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها حتى يئأس منها العرب، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر، ثم وجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون، فذكروا أن إفريقية: كانت ظلماً واحداً من طرابلس إلى طنجة وقرى متصلة ومدائن منتظمة حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن وحصونا من إقليم إفريقية والمغرب... فخربت من قبل الكاهنة وقومها، عندئذ خرج من النصراري والأفارقة خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية.

وكانت الكاهنة لما أسرت ثمانين رجلاً من أصحاب حسان أحسنت إليهم، وأرسلت بهم إلى حسان، وحبست عندها (خالد بن يزيد)، وقالت له يوماً: ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع!! وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخاً لولدي، وكان لها ابنان أحدهما بربري والآخر يوناني، وقالت له أيضاً: نحن جماعة البربر لنا رضاع إذا فعلناه نتوارث به، ثم عمدت إلى دقيق الشعير وخلطته بزيت وجعلته على ثدييها، ودعت ولديها، وقالت: كُلا معه على ثديي فعلاً، فقالت قد صرتم إخوة...

وإذا كانت هذه الكاهنة قد فعلت هذا بإفريقية فإن حساناً لم ينس ما يفعله فقد توافدت عليه فرسان العرب ورجالها بعد هزيمته مع الكاهنة وذلك من قبل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وبعدها دعا رجلاً يثق به وبعثه إلى (خالد بن يزيد) بكتاب، فقرأه، ثم كتب في ظهره: إن البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأي عندهم!! فاطو المراحل وجدّ في السير، وجعل الكتاب في خبزة وجعلها زادا للرجل ووجهه بها إلى الأمير حسان. ولم يغب عن خالد بن يزيد إلا يسيراً حتى خرجت الكاهنة ناشرة شعورها تضرب صدرها وتقول: يا ويلكم يا معشر البربر!! ذهب ملككم فيما يأكله الناس،

فافترقوا يمينا وشمالا يطلبون الرجل، فستره الله تعالى حتى وصل إلى حسان، فكسر الخبزة وقرأ الكتاب فوجده قد فسد من النار، فقال له حسان : ارجع إليه فقال الرجل : والكاهنة !! فرحل حسان بجنده إليها، فلما كان في الليل قالت لابنيها : إني مقتولة وأعلمتهم أنها رأت رأسها مقطوعا موضوعا بين يدي ملك العرب الذي بعث حسانا، فقال لها خالد : فارحلي بنا، وخلي له البلاد، فامتنتع ورأته عارا لقومها، فقال لها خالد ومن معه من أولادها : فما نحن صانعون بذلك ؟

فقالت : أما أنت يا خالد فستدرك ملكا عظيما عند ملككم، وأما أولادي فسيديكون سلطانا مع هذا الرجل الذي يقتلني، ثم قالت اركبوا واستأمنوا إليه، فركب خالد وأولادها في الليل وتجهوا إلى حسان فأخبره خالد بخبرها وأنها علمت بمقتلها، وقد وجهت إليك بأولادها فوكل بهم من يحفظهم. وبعد ذلك قدم حسان خالدا على أعنة الخيل، وخرجت الكاهنة ناشرة شعرها فقالت : انظروا ما دهمكم، فإني مقتولة ثم التحم الفريقان : الفريق الإسلامي بقيادة حسان وخالد وفريق الكفرة بقيادة الكاهنة واشتد النزال فانهزمت الكاهنة بإذن الله وتبعها حسان حتى قتلها ودخل تحت لوائه جماعة من البربر وقد استأمنوه فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألفا يجاهدون مع العرب، فأجابوه وأسلموا على يديه فعقد لولدي الكاهنة لكل واحد منهما ستة آلاف فارس وأخرجهم مع العرب يجولون في بلاد المغرب، يقاتلون الروم ومن كفر من البربر، وانصرف حسان إلى مدينة القيروان واستقامت له بلاد إفريقية، فدوّن الدواوين، وصالح على الخراج ولم ينازعه أحد بعد الكاهنة اللعينة حتى عزله عبد العزيز بن مروان والي مصر دون أمر الخليفة عبد الملك بن مروان (1).

(1) قد يقول القارئ قولنا ظاهرا على لسانه، وقد يخفيه، فيقول ما علاقة هذه الحكاية بالتراث الأندلسي؟ وأنا أقول له الأندلس لم تفتح بعد والمغرب كانت منطلقا للفتح الإسلامي الذي امتد إلى بلاد أوروبا ونحن نعرف أن هناك الكثير من البرابرة الذين شاركوا في الفتح الإسلامي خاصة لبلاد الأندلس، بل إن البربر من العناصر المهمة في المجتمع الأندلسي الذي تشكل فيما بعد.

4- الحطاب..... والنصارى :

"كان المنصور بن أبي عامر، جالسا في بعض الليالي، وكانت ليلة شديدة البرد والريّح والمطر، فدعا بأحد الفرسان، وقال له : "انهض إلى فج طليارش وأقم فيه، فأول خاطر يخطر عليك سقه إلي". قال : فنهض الفارس وبقي في الفج في البرد والريّح والمطر واقفا على فرسه، إذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هرم على حمار له، ومعه آلة الحطاب، فقال له الفارس : "إلى أين تذهب يا شيخ؟" فقال : "وراء حطاب". فقال الفارس في نفسه : "هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حطبا، فما عسى أن يريد المنصور منه؟" قال : فتركته فصار عني قليلا، ثم فكرت في قول المنصور، وخفت سطوته، فنهضت إلى الشيخ وقلت له : "ارجع إلى مولانا المنصور". فقال : "وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلي؟ سألتك بالله أن تتركني لطلب معيشتي!" فقال له الفارس : "لا أفعل" ثم قدم به على المنصور، ومثله بين يديه وهو جالس، لم ينم ليلته تلك. فقال المنصور للصقالبة : "فتشوه!" ففتش فلم يوجد عنده شيء، فقال : "فتشوا بردة حماره!" فوجدوا بداخلها كتابا من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور، يحزمون عنده إلى أصحابهم من النصارى ليقبلوا ويضربوا في إحدى النواحي المعلومّة. فلما انبلج الصبح أمر بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة فضربت أعناقهم وضربت رقبة الشيخ معهم". (1).

5- الأميرة الأسيرة :

"بثينة بنت المعتمد بن عباد، وأمها الرميكية، كانت نحوا من أمها في الجمال والنادرة ونظم الشعر، ولما أحيط بأبيها ووقع النهب في قصره كانت من جملة من سبي، ولم يزل المعتمد والرميكية عليها في وله دائم لا يعلمان ما آل إليه أمرها إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهور المتداول بين الناس بالمغرب، وكان أحد تجار إشبيلية اشتراها على أنها جارية سريّة ووهبها لابنه فنظر من شأنها وهيّئت له، فلما أراد

(1) من : البيان المغرب ج2 ، ص 290 - 291.

الدخول عليها امتنعت، وأظهرت نسبها، وقالت لا أحلّ لك إلا بعقد نكاح إن رضي أبي ذلك، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها وانتظار جوابه، فكان الذي كتبه بخطها من نظمها ما صورته :

<p>اسمع كلامي واستمع لمقالتي لا تنكروا أني سبيت وأنني ملك عظيم قد تولى عصره لما أراد الله فرقة شملنا قام النفاق على أبي في ملكه فخرجت هاربة فحازني امرؤ إذ باعني بيع العبيد فضمني وأرادني لنكاح نجل طاهر ومضى إليك يسوم رأيك في الرضى فعساك يا أبتى تعرفني به وعسى رميكية الملوك بفضلها</p>	<p>فهي السلوك بدت من الأجياد بنت لملك من بني عبّاد وكذا الزمان يؤول للإفساد وأذاقنا طعم الأسى عن زاد فدنا الفراق ولم يكن بمراد لم يأت في إعجاله (1) بسداد من صانني إلا من الأنكاد حسن الخلائق من بني الأنجاد ولأنت تنظر في طريق رشادي إن كان ممّن يُرتجى لوداد تدعو لنا باليمن والإسعاد (2)</p>
---	---

(1) دوزي : أفعاله.

(2) من : النفع....، ج 4 ، ص 284.

6- مقامة الوادي آشي (1) :

مقامة كتب بها محارب بن محمد الوادي آشي (2) للقائد أبي عبد الله بن ميمون (3):
 أخبر فتح بن ميسور قال : تعرفت بمدينة صور (4) بفتى يعرف بابن منصور، ذي
 جد بعيد الحيف، وقد لا يزيد على السيف، جلال له سبع وسبع (5)، كأنه هلال له خمس
 وخمس وأربع (6). ينزل من قطره بالمحل الأسنى، ويحلّ منه محلّ القرط من الغادة
 الحسن (7)، يسعى في ميدان الفصاحة فتحمد مساعيه، ويدعو أباسم البلاغة فتجيب
 دعوة داعيه، فسكنت إلى ساحته لفصاحته، وركنت إلى جماله لإحسانه وإجماله،
 واستظلت بشمس وصاله، وظلت أولع ببرّه وإفضاله، وأسرّ بخلّفته وأخلاقه، حتى حكم

(1) نقلا من كتاب (رسائل أندلسية) تحقيق الدكتور فوزي سعد عيسى ، الصفحات من 81 - 92.

(2) هو : أبو محمد محارب بن محمد بن محارب من أهل وادي آش، قرب غرناطة، ذكر ابن الأبار
 في (الكلمة ت : 1173) أنه كان حيا إلى سنة 553 هـ، وأورد له في (المقتضب من كتاب تحفة القادم
 ص 85) أبياتا يمدح فيها القاضي أبا الفضل بن عياض. وهذه الأبيات من مقامة أخرى لمحارب في
 مدح القاضي عياض وقد ذكر ابن الأبار أنها كتبت سنة 553 هـ ولكنها لم تصل إلينا كاملة.

(3) عبد الله بن ميمون : قائد بحري مرابطي أبلى بلاء حسنا في استرداد جزيرة ميورقة بعد أن
 حاصرها النصارى واحتلوها سنة 508 هـ، واستطاع عبد الله بن ميمون أن يخترق الحصار بسفينته
 تحت جنح الظلام، وأن يعبر البحر إلى المغرب في محاولة جريئة لطلب النجدة، ويادر علي بن
 يوسف بن تاشفين بتجهيز أسطول ضخّم من خمسمائة سفينة نجح في دخول ميورقة واستردادها
 (509 هـ). ومنذ ذلك التاريخ دخلت ميورقة أو كبرى الجزائر الشرقية تحت طاعة المرابطين. انظر
 في ذلك: (ابن خلدون 4 : 165، روض القرطاس : 105، عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح
 المرابطي 212 - 213).

(4) صور : مدينة بالشام.

(5) كذا بالأصل.

(6) يشبهه بالهلال حين يكون ابن أربع عشرة ليلة.

(7) الحسن : الحسناء، والتخفيف لمرعاة السجع.

الدهر ببعده وفراقه، فنجدت وعرّق (1)، وغرّبت وشرّق، وحللت مدينة سلا (2)، وقلبي قد أقصر عن التصابي وسلا، وسيفي ينشد :

18- ب/ "خَلِيلِيَّ عَنْ عَصْرِ الشَّبَابِ سَلَا"

وصرت أكلف البرية بحضرة المرية (3)، فنبتت عن غير وردها كل نية، وأخذت على قعودها كل ثنية، وسرت أعمل السير والسرى، ولاأذوق إلا على الأكوار (4) الكرى، وأكل العيس (5) إلى نهج البرى (6)، وأحث إليها ركابي، وأركب من أجلها طرفا (7) غير كاب، وأطوي نحوها المراحل، وأطوف البيداء والسواحل، إلى أن وردت مدينة سبتة (8)، وقد هجرت طاغوت الصبا وجبته، وطلّقت ثلاثا البتّة، وحللت الجزيرة (9)، ولم أعبأ بغوير ولا غويره (10)، حسبما يقتضيه سنين السن، ويرتضيه حال

(1) نجدت : اتجهت إلى نجد، وعرّق قصد العراق.

(2) سلا : مدينة مغربية تقع على شاطئ المحيط الأطلسي، ويفصلها عن رباط الفتح الوادي الذي يصب في المحيط، ويقال : إنها أول بناء بناه البربر لما دخلوا المغرب. (الروض المعطار 197-198، الإدريسي 72، الاستبصار 149).

(3) المرية : مدينة في جنوب شرق الأندلس، بناها الخليفة عبد الرحمان الناصر لدين الله سنة 344 هـ، وكانت أعظم قواعد الأسطول الأندلسي في عصر الخلافة الأموية، وكان لها دور سياسي وحضاري عظيم في عصر الطوائف (انظر : الروض المعطار ص 183)، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، د / السيد عبد العزيز سالم، ط. بيروت 1969.

(4) الأكوار : جمع كور، وهي الإبل الكثيرة العظيمة، يقال فلان على كور من الإبل، أي على قطيع منها.

(5) العيس : الإبل.

(6) يقال : برت البعير إذا حسرته وأذهبت لحمه، فأصابه الهزال من السفر والترحال.

(7) الطّرف (بالكسر) من الخيل : الكريم العتيق.

(8) مدينة بشمال المغرب، مازالت إلى اليوم تحت الاحتلال الإسباني.

(9) أي جزيرة الأندلس

(10) ماء لكلب معروف بناحية السماوة، والمقصود أنه لم يخش المخاطر.

الرجل المسنّ، فامتطيت منها ثبج العزم، وتخطيت من وساد الكسل إلى فجاج الحزم، وأدخلت على نون الإقامة حروف الجزم⁽¹⁾، فشحذت نصل حزمي للرحلة، ونبذت لانتحال الاغتراب كل نحلة، وظلت أسير، والقلب بيد الاشتياق أسير، حتى وصلت إلى مدينة وادي آش⁽²⁾، وجسمي لا يتبين حولاً في فراش، وفراشي فوق أجنحة الفراش، فمثلت في حيطانها، وحصلت بين رباها وغيطانها⁽³⁾، فرأيت للحسن مقر إيراد وإصدار، وجمال قطر لا يجري على مقدار :

بلد حيثما توجهت منه قابلتك الحسان من كل دار
فأظلتني أفياء تلك الأنشام، وأضلّنتني عن المسير حرجات⁽⁴⁾ الأيك بها والبشام⁽⁵⁾،
وخلصت إلى دوحة فرصاد⁽⁶⁾، وجلست لإطلال مرشد بالمرصاد، فبينما أنا أنتظر الرفيق، والمنجد على معرفة الطريق، إذا نجم⁽⁷⁾ لي راكب، يسري سري الكواكب، قد اعتقل أكمل لأمه⁽⁸⁾، وصولج في خده لأمه⁽⁹⁾ واعتّم بأجمل عمامة، وجعل الحذر وراءه وأمامه، جليل له همة تجلّه، قليل على ظهر المطية ظلّه⁽¹⁰⁾، قد تنكب فرسا

(1) كناية عن تصميمه وعزمه على الرحيل.

(2) مدينة في جنوب الأندلس، قريبة من غرناطة بنحو ستين كيلومتراً، وقد نسب إليها محارب صاحب المقامة، وقد سقطت وادي آش سنة 795 هـ (الروض المعطار: 604، نزهة المشتاق: 295).

(3) الغيطان : الأماكن المتسعة من الأرض مع طمأنينة.

(4) الحرجات : الشجر الملفت.

(5) البشام : شجرة طيب الريح يستاك به.

(6) الفرصاد (بالكسر) : التوت الأحمر خاصة.

(7) نجم : ظهر ولاح.

(8) اللّامة : الدرع، وقد خففت الهمة لمرعاة السجع.

(9) يشبه عذاره بحرف اللام.

(10) من قول عمر بن أبي ربيعة :

قليل على ظهر المطية ظلّه سوى ما نفى عنه السرداء المحبّر
(ديوانه، ص 64)

عربية، وكنانة ⁽¹⁾ غريبة، له عمّة ⁽²⁾ تشهد له بعلوّ الهمة، ولثام ⁽³⁾ يحذر عن ارتكاب ⁽⁴⁾ الآثام، وقد ضوى ⁽⁵⁾ منه أطراف المطارف ⁽⁶⁾، حمائل سيف وصفه ذوو المعارف: وفي الغمد موتور الهوى طال حبسه عن الثأر حتى كاد يفتك بالغمد وقد تمطى فوق شملة ⁽⁷⁾، حسنة القد مُشمّعة ⁽⁸⁾، مصقولة الأديم، مُصفرة في لون العرجون ⁽⁹⁾ القديم، لها أذن مؤلّلة ⁽¹⁰⁾ كبرية القلم أو كأطراف الجلم ⁽¹¹⁾، وبشرة عسجدية، و حوافر زبرجدية، وتطلّع شيحان ⁽¹²⁾، وتقريب تتفل ⁽¹³⁾ وإرخاء

(1) الكنانة : جعبة السهام.

(2) العمّة ما يتعمم به ويكني بها عن البيضاء أو السيف أو لبس ثياب الحرب.

(3) كان فرسان المرابطين يضعون لثاماً على وجوههم.

(4) في الأصل : ركوب، وقد صححت الكلمة في الهامش.

(5) الضوى : دقة العظم وقلة الجسم خلقة، وقيل : الضوى : الهزال والضعف.

(6) المطارف : جمع الثياب وقيل إنها أردية من خز مربعة لها أعلام.

(7) الشملة (بالتشديد) : الفرس أو الراحلة الخفيفة السريعة المشمرة.

(8) مشمّعة : صفة للفرس أي : خفيفة سريعة نشيطة.

(9) العرجون : العذق عامة، وقيل : هو العذق إذا بيس واعوج، وهو أصفر عريض، وقد شبه الله به

الهلال لما عاد رقيقاً، فقال الله سبحانه وتعالى: «وَالْقَمَرُ قَدَرْتَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ» يس: آية 39

(10) مؤلّلة : حادة منتصبه، ومنه قول طرفة يصف أذني ناقته بالحدة.

مؤللتان يعرف العتق فيهما كسَامِعَتِي شاة بحومل مفرد (شرح المعلقات، ص 44)

(11) الجلم : المقرض الذي يجزّ به الشعر والصوف ونحوهما.

(12) الشيحان : السريع أو الطويل الحسن الطول، وأنشد شمر :

مشيح فوق شـيـحـان يـدـر كأنه كـلـب (اللسان : شيخ)

(13) التقريب : وضع الرجلين موضع اليدين في العدو، والتتفل : ولد الثعلب.

سرحان⁽¹⁾، ضامرة طمرة، غير ساكنة الجأش ولا مستقرة، تمرح باللجام مرح الأشبال في الآجام، وتسري فتبرح بالبعد أعظم تبريح، فتحسدها خطفة البرق وهبة الريح، تصل شأو الطول، بوعد غير ممطول، وتتلقى الأرض بهمة حية، وتركض ظهرها بيد جان لامس حية، تجذأ أديم الأرض جذذا⁽²⁾، وتخط فتولي الحصى من وطنها نبذا، تساورها عن يمينه أحسن مساورة، وتساورها إن همت بمساوره، سلقة⁽³⁾ طريفة الخلقة، ذات ذنب مستدير كالحلقة، تؤز الخزان أزا⁽⁴⁾، وتورث الفتیان حرصا وعزا، عربية الشكل كما وصف ابن مرعزا⁽⁵⁾ :

محبوكة الظهر لم يخنها لصوق بطن منها خميص⁽⁶⁾

(1) الإرخاء : ضرب من عدو الذئب يشبه خيب الدواب، والسرحان : الذئب، وهو ينظر إلى قول أمري القيس في وصفه فرسه :

له أيطلا ظبي وساقا نعاما وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (ديوانه ص 21)
(2) الجذاذ : كسر الشيء الصلب.

(3) السلق : شدة الصوت، أو الماضية في سيرها (اللسان : سلق).

(4) الأز : الحركة الشديدة ويقال : أزت القدر أزا : إذا اشتد غليانها، والخزان : أي تختزن الطريق من سرعتها.

(5) ابن مرعزا النصراني الإشبيلي : من نصارى إشبيلية، ظهر في دولة المعتمد بن عباد، وكان من مداحه. (المغرب 1 / 264. الخريدة قسم المغرب 91 / 2، نفح الطيب (3 / 521). وهذه الأبيات قالها ابن مرعزا في وصف كلبة الصيد وقد وردت في المغرب 1 / 264 على هذا النحو :

لم أر ملهى لذي اقتناص	ومفنع الكاسب الحريص
كمثل خطلاء ذات جيد	أغيد تبرية القميص
كالقوس في شكلها، ولكن	تنفذ كالسهم للقنيص
إن تخذت أنفها دليلا	دل على الكامن العويص
أو أرسلوها وراء برق	لم يجد البرق من محيص

وقد وردت الأبيات كذلك في الخريدة 91 / 2، والنفح 3 / 521 مع اختلاف في الرواية.

(6) لم يرد هذا البيت في المغرب ولا النفح، وورد في الخريدة بهذه الرواية :
محبوكة الظهر لم تجبه لجوف بطن لها خميص

كالقوس في شكلها ولكن تَنَفَّذُ كَالسَّهْمِ لِلْقَنَاصِ
 إِنْ تَخَذَتْ أَنْفَهَا دَلِيلًا قَادَ إِلَى (1) الْكَامِنِ الْعَوِيصِ
 لو أنها تستثيرُ بَرَقًا (2) لَمْ يَجِدِ الْبَرْقَ مِنْ مَحِيصِ
 صلاحها في أكمة توافيها، وسلاحها مجموعة في فيها، قد قدَّ من الأديم قدَّها،
 وحكى الغزال لحظها وقدَّها، وقد احتمل فوق شماله أجمل جارح (3)، تميل إليه النفوس
 والجوارح، قد أُنْقِنَتْ حلاه أي إِتْقَان، وكأنما خضبت رجلاه بالبرقان، يعقد بمنقاره عقد
 سبعين، ويشد على الفريسة بثلاثة وتسعين، قد احتمل أحسن درع وأحسن برود، ونضّر
 في عطفه تيهها كما تنضّر الغادة الرود (4)، وحلّى بدروع أبدع في تصفيفها، وحلّى
 بالخلخل وتصحيفها، فإذا خلا له الجو باض وصفر (5)، وإن أبصر جارحا غيره قلق
 ونفر، وإن ألحفته غيوم النو (6)، وأبصر عقابا (7) في الجو، شد إلى الرجوع زيمه (8)،
 وأمطر من الخضوع ديمه، فيخضع خضوع غريب، ويلتفت التقات مريب، ويهدأ هدو
 العلجوم (9)، وينظر كأنما ينظر في النجوم.

قال فتح : فدنوت من مطيته، لأعلم كنه طيته، وسلّمت وسلّم، وتأوّه وتألّم، وقال :

(1) في المغرب والنفخ : دل على، ولم يرد البيت في الخريدة.

(2) كذا رواية البيت في النفخ، وفي المغرب "أو أرسلوها وراء برق" ولم يرد البيت في الخريدة.

(3) أي أن الفارس كان يحمل معه سقرا للصيد.

(4) الرود : الناعمة اللينة.

(5) ينظر إلى قول طرفة :

يالك من قبرة بمعمر خلا لك الجو في بيضي واصفري

(6) النو : مخفف النوء : المطر.

(7) العقاب : النسر.

(8) الزيم : المتفرق، وتزيمت الإبل والدواب : تفرقت، والمعنى مجاز.

(9) العلجوم : الظلمة الشديدة، أي أنه يهدأ كهدهو الليل، ومن معاني العلجوم كذلك : الماء الغمر

الكثير، والضفدع، والبط ذكره وأنتاه. (اللسان : علجم).

الحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يكن يعلم (1)، ورشق يمنة وشمالا، واستنشق صبا وشمالا (2)، فشغلت عن استرشاده، لعذوبة إنشاده (من البسيط).
ظَلَمْتُ تُرِيدُ سَبِيلَ الْغَدْرِ تَسْلُكُهُ فَتَّانَةٌ زَانَهَا الْإِدْلَالُ وَالْخَفَرُ
قَالَتْ : أَتُرْحَلُ مُخْتَارًا ؟ فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ الْمَقَامَ عَلَى ذَلِكَ هُوَ السَّفَرُ
وظَلْتُ أَمَاشِيهِ لِرَقَّةِ حَوَاشِيهِ، وَأَلْأَزَمَهُ مَلَازِمَةُ الظِّلِّ لِلْأَشْبَاحِ، وَأَمَازِجُهُ مَمَازِجَةُ
النَّفُوسِ لِلْأَرْوَاحِ، فَمَا سَأَلْتَهُ عَنْ حَدِيثٍ إِلَّا ذَكَرَهُ بِنَصِّهِ، وَلَا عَنْ أَمْرٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ مِنْ
فَضْلِهِ.

وسرنا إلى خندق أوس (3)، ودسنا نواحيه أي دوس، ورمينا غرض الرحلة عن كل قوس، وتصدينا بتلك الأحواز (4)، وحكينا نخوة ولالة الأهواز (5)، ووصلنا عبلة الريح، وقد أبدى عن الرغوة الصريح (6)، فبتنا بها أحسن مبيت، نتجاذب الحديث عن الزوراء ومليت (7)، ونرسل بيننا عوارف الأدب، وننسل البلاغة من كل حذب.
ولما قرب حين السفر وحن، وتعرض في الأفق ذنب السرحان (8)، بعث الله النسيم

(1) يقتبس من قوله تعالى (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) العلق - الآية 5).

(2) شمالا : رياح الشمال وقيل إنها تهب من قبل الشام عن يسار القبلة. والصبا ريح معروفة تقابل الذبور.

(3) الخندق : الوادي وخندق أوس : موضع.

(4) الأحواز : النواحي والحوز من الأرض أن يتخذها رجل ويبيّن حدودها فيستحقها، فلا يكون لأحد فيها حق معه.

(5) الأهواز : سبع كور بين البصرة وفارس، لكل واحدة منها اسم وليس للأهواز واحد من لفظه، ولا يفرد واحد منها بهوز (اللسان : هوز)

(6) في المثل : "تحت الروغة اللبن الصريح" أو "الصريح تحت الرغوة" أي أن الأمر مغطى عليك وسيبدو لك. (مجمع الأمثال للميداني : 1 / 428).

(7) الزوراء : مدينة ببغداد في الجانب الشرقي، ودجلة ببغداد تسمى الزوراء، والزوراء : دار بالحيرة بناها النعمان بن المنذر. ومليت : موضع.

(8) كناية عن طلوع الفجر.

عليلا، وهو يجر ذيله بليلا (1)، والظلام موليا كليلا، والبرق يصدع (2) جلباب الظلام، والرياح تقتاد أزمة الغمام، وسل سيف البرق من غمده، وسبح الرعد "وإن من شيء إلا يسبح بحمده" (3)، فأهملت السماء دموعها، وأروت الأرض : معاهدها وربوعها، وعم المطر بالبرى، وسال واديه فطم على القرى، وأصبح وكل في لجة يسبح، وركبنا خائضين في أوحال، حامدين لله على كل حال، فانقشع الغمام وانجاب، والشمس تنتظر من وراء حجاب، وانتثر عن الشمس السحاب في خيها، (وأشترقت الأرض بنور ربها) (4)، وخمدت نار القرى وخبت، وأنزل الماء على الأرض فاهترت وربت (5)، وغدونا نركض مطي الارتياح، ونقبض هدايا الروض من أكف الرياح، وننحاش عن السفر، ونقطع بملح الحديث المهامه والقفور، حتى وصلنا الكثيب المهيل (6)، وأجزنا ساحة التكبير والتهليل، والليل قد مدت أنساعه (7)، والوقت قد ضاق اتساعه، وأوان النهار قد أزف، وماؤه قد نزف، وعبء العشي قد قذف، وحرف الأضواء قد حذف، وألوية الوادي قد نشرت، وسطور الظياء قد بشرت، وأمم الحناديس قد حشرت، ومدت من الليل مسوحه (8)، وأحيا ميت الظلام مسيحه (9)، والسنة (10) تلازم الجفون، ملازمة

(1) البليل : ريح باردة مع ندى.

(2) يصدع : يشق ويمزق.

(3) الإسراء 17، آية 44، (وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم).

(4) الزمر، آية 69.

(5) مقتبس من قوله تعالى : «وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت» الحج، آية

5. وقوله تعالى : «ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت» فصلت، آية 39.

(6) الكثيب المهيل : الرمل الذي لا يثبت مكانه، فينهال ويسقط.

(7) الأنساع، الحبال، والسير الذي يضفر وتشد به الرحال.

(8) مسوحه : نوائبه، والمعنى مجاز.

(9) يقتبس هذه الصورة الجميلة من معجزة المسيح عليه السلام في أحياء الموتى ويشخص الظلام تشخيصا جميلا.

(10) السنة : النعاس، ومنه قوله تعالى : (لا تأخذوا سنة ولا نوم).

النصول للجفون⁽¹⁾، فملنا إلى خيمة من الخيام، ووصلناها والناس نيام، فطفنا بأسبابها⁽²⁾، وانتهينا إلى بابها وقرعنا قرعا حثيثا، وهتك المصباح لنا سترا رثيثا⁽³⁾، وناديننا: بأن هلم إلى الباب، فلبى صاحب الخيمة واستجاب، وخرج ينساب انسياب الفرات، وقال: مرحبا بالسراة السراة⁽⁴⁾، وبالوجوه الوجوه⁽⁵⁾، أنزلوا في رحب وفي سعة، وبالجزع لا تحفلوا فأنتم في أمن وفي دعة، فدخلنا في خيمة ذات منير ومنار، ومصباح نور وقبس نار، وبتنا تحت جود وندى، وبات على النار المحلق والندى⁽⁶⁾، ولما اطمأن مجلسنا وطاب، وبلغ بسر⁽⁷⁾ الأنس إلى حد الإرباط، وتلنا من لذة الوصول، كل أمنية وسؤل⁽⁸⁾، ظلت أسائل عن الحضرة ونعيمها، وأنقب عن سيدها وزعيمها، ومشيد مبانيها، وحامي دمارها ومغانيها، وساحب ذيل برها، وصاحب بحرها وبرها، ذي الرأس السديد، والبأس الشديد، والحكم المأمون، والنجاح المضمون، القائد الأجل أبي عبد الله بن ميمون⁽⁹⁾، سيف هذه الملة، وحتف الطائفة المضلة، فقال: ذلك رجل ماجد، له على الكفرة قلب واجد، من الذين يشكون المشكاة، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة⁽¹⁰⁾، ويبادرون من الفضل إلى السبيل الأحمد الأشكر، (وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

(1) الجفون الأولى جفون العين، والثانية: غمد السيف.

(2) أسباب الخيام: حبالها أو أوتادها.

(3) رثيث: ضعيف.

(4) السراة: الأشراف، ذوو الترف والمروءة والسخاء.

(5) الوجه: المحيا، ووجه القوم: سادتهم وأشرافهم، وهو المراد.

(6) مقتبس من قول الأعشى في مدح المحلق بن خنثم بن شداد بن ربيعة:

تَشَبَّ لِمَقْرُورِينَ يَصْطَلِيَانَهَا وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقُ

(ديوانه: 223)

(7) بسر: التمر قبل أن يربط لغضاضته، (واحدته: بسرة).

(8) سؤل: (مخففة الهمزة لمراعاة السجع): مطلب.

(9) سبق التعريف به.

(10) مقتبس من قوله تعالى: (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)، (المائدة، آية 55).

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ⁽¹⁾، ومن الذين صبروا وجاهدوا⁽²⁾، ومن الموفين بعهدهم إذا عاهدوا⁽³⁾، لا يصرف قدما إلا في سبيل صلاح، وإصلاح سلاح، أوهم من أمر العدو يهيمه، أو رم في ذات الله يرمه، حزم من الصوارم أصرم⁽⁴⁾، وكف من الغمام أكرم : إن شام⁽⁵⁾، طرفك كفه أو سيفه وعَرْتُكَ مِنْهُ أَبُوسٌ أو أَنْعُمُ أَبْصَرْتُ أَجَالًا تَحُلُّ وَتَنْتَهِي ورَأَيْتَ أَرْزَاقًا تُعَدُّ وَتُقَسَّمُ إن حابى فكرم للمال مبير، أو احتبى فَيَلَمَّتُمْ أو تُبِير⁽⁶⁾، وسلني (ولا يُنْبِئُكَ مِثْلُ خَبِير)⁽⁷⁾.

قلت : قد وصفت بعض حليته وأدواته، فصفت لي بعض غزواته ! قال : هن سلوك لا يطاق لها نثر، وسلني عن أيهن فهن كثر ! قلت : القرية العهد، المرعبة لأطفال⁽⁸⁾ المشركين في المهد، قال :

أُنْبِئُكَ بِغَزْوَةِ رُمَانَةٍ، وناهيك من مكان لشرك ومكانة. لما بلغ من العزيمة⁽⁹⁾ أقصاها، وجمع جيوش القطنع وأحصاها، ونسي طيب لذة الوسن وأنساها، (وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِاسِمِ اللَّهِ مُجْزَاهَا وَمُرْسَاهَا)⁽¹⁰⁾، وسنى الله له من أمره ما يسر ويسر، وركب على

(1) اقتباس من قوله تعالى : (يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)، (التوبة، آية 71).

(2) اقتباس من قوله تعالى : (ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)، (النحل، آية 110).

(3) مقتبس من قوله تعالى : (وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا)، (البقرة، آية 177).

(4) أصرم : أقطع، والصارم السيف القاطع.

(5) شام : تطلع ونظر، وشام السحاب والبرق : نظر إليه : أين يقصد ؟، أين يمطر ؟

(6) ثبيرة : جبل بمكة.

(7) سورة فاطر، الآية 14.

(8) في الأصل : لأهل، وصوبت في الهامش.

(9) في الأصل : الغريمة.

(10) سورة هود، آية 41.

ذات ألواح ودر (1)، وسار يلج من البحر في كل لجة، ويحج منها إلى كل محجة (2)، لتكون له بذلك عند الله حجة، وظل يريد وجه الله بأنجد أصحاب، وألوية نصر خافقة في السحاب، قد التحفتهم الرياح والبحور، ولا يحار لمسلم فيحور (3)، والنفوس على نفاستها مهوور الحور (4)، فوصل رمانة بالفلك، ويد النصر تقضي على الشرك بالتدمير والهلك، ولسان الحق يتلو (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ). (5).

وحين وصلهم بالأسطول، وعمر من ناديهـم العرض والطول، علا نحيبهـم وصياحهـم (6)، ونزل بساحتهم فساء صباحهـم، فأوقفهـم الله الموقف الصعب، (وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) (7)، وأذاقهـم في برد الغدو حر الهواجر، وبلغت القلوب منهم الحناجر (8)، وتشاجرت السيوف والخناجر، ولا تحاكم إلا لأطراف الرماح الشواجر (9)، فأباح حرمها واستباح حرمها (10)، وأكمل من غزوها فرائضها ونوافلها، وردّ ديار الشرك عاليها سافلها، وانصرف على خيول السعادة، وأضر بحول الله غزوة معادة.

-
- (1) مقتبس من قوله تعالى : (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ)، (القمر، آية 13). والدسر: خيط من ليف تسد به ألواح السفينة، وقيل هو : مسمارها، ويقال دسرت السفينة الماء بصدرها : عاندته.
- (2) المحجة : الطريق.
- (3) يحور : يرجع.
- (4) الحور : نساء الجنة.
- (5) سورة الملك، آية 1، والآية : (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).
- (6) أي نحيب الكفار وصياحهـم.
- (7) سورة الأحزاب، آية 26، والآية بتمامها : (وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا).
- (8) مقتبس من قوله تعالى : (وَإِذَا زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)، الأحزاب : آية 10.
- (9) الرماح الشواجر : المتداخلة المختلفة.
- (10) الحرم (بالفتح) : كل ما حرم فلم يمس، والحرم (بالضم) : النساء، يقال حرم الرجال أي عياله ونساؤه وما يحمي، وهي المحارم.

ولما أنصرف مسرورا بحسن يقينه، ووصل محبورا إلى خيسه وعرينه (1)، ما بدّل ثوبا لبسه ولا فرق خوّله (2) وحرّسه، حتّى تلا قربنا : (واعلموا أنّ ما غنمتم من شيء فإنّ لله خمسُهُ) (3)، فنهض وهو الحفيظ الأمين، نحو أمير المسلمين (4)، فلقاه بشرا ورحبا، وصدرا ملئ حبا، وفاكهة من التحفِ وأبّا (5)، وأراه وجهه أمله غلاما، ولقاه تحية وسلاما (6)، وشيّعه عند انفصاله أميالا، وجعل سمة التتويه في نجاده نيالا (7)، ومع ما ينيله أمير المسلمين - أيده الله - من الجاه والبر، والإكرام المبرّ، لا يزال يوالي من التواضع ما به الله قد نفعه، ومن تواضع لله رفعه.

قال فتح : فلما سمعت تلك الألفاظ الإيادية (8)، والأغراض الزيادية (9) تأملته، وللتأنيس أملتّه، ورجوت أن يكون صاحبي بصور، سعد بن منصور، فحدّر القناع (10) عن صبح ملثم (11)، ونطق غير لكن ولا متلعثم، فشمتت رياه، وشمتته فإذا هو إياه، وقلت : سعد ؟ قال : سعد، جمعتنا الليالي على غير وعد، "وَالأَمْرُ لِلَّهِ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ

(1) الخيس والعرين : موضع الأسد.

(2) الخول : العبيد والخدم.

(3) سورة الأنفال، آية 41 والآية (واعلموا أنّ ما غنمتم من شيء فإنّ لله خمسُهُ وللرّسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إنّ كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كلّ شيء قدير).

(4) أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين.

(5) من قوله تعالى : (وفاكهة وأبّا) سورة عبس، آية 31، والأب، كل ما أخرجت الأرض من النبات.

(6) من قوله تعالى : (ويلقون فيها تحية وسلاما)، سورة الفرقان، آية 75.

(7) النجاد : حمائل سيف، ويكنّى بطول النجاد عن طول القامة.

(8) الألفاظ الإيادية : نسبة إلى إياد بن نزار بن معد، وإياد : حي من معد باليمن، ومنهم أبو دؤاد الإيادي.

(9) نسبة إلى زياد بن أبيه (؟).

(10) حدّ القناع : رفعه وأسقطه.

(11) إشارة إلى اللثام الذي كان يضعه المرابطون على وجوههم.

بَعْدُ" (1) غبت وشبت وصرت أبا البنين.

قال : (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ، وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) (2) ، فعانقته معانقة الأديب لأحبابه ، وكلفت به كلف عمر بربابه (3) ، فصحبت ذلك الذكاء (4) ، إلى طلوع ذكاء ، واستوى على ظهر المطية ، ولا أدرى لأي طية ، وأتبعته ميلا ، فما رأيت له زاملة ولا زميلا (5) ، واللّه يصنع لنا وله صنعا جميلا . كملت بحمد الله وحسن عونه .

7- عائشة في السجن

"كانت عائشة "الحرّة" ملكة غرناطة في ظل ملك يحتضر ، ومجد يشيع بضوئه الأخير ليخبو ويغيب . وقد رزقت من زوجها السلطان أبي الحسن بولدين هما أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف . وكانت روح العزم والتفاؤل ، التي سرت في بداية هذا العهد إلى غرناطة تذكي بقية الأمل في إنقاذ هذا الملك التالد . وكانت عائشة ترى من الطبيعي أن يؤول الملك إلى ولدها ، ولكن حدث بعد ذلك ما يهدد هذا الأمل المشروع . ذلك أن السلطان أبا الحسن ركن في أواخر أيامه إلى حياة الدعة ، واسترسل في أهوائه وملأذه ، واقترن للمرة الثانية بفتاة نصرانية رائعة الحسن ، تعرفها الرواية

(1) مقتبس من قوله تعالى : (لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ) (سورة الروم ، آية 4) .

(2) سورة الشعراء ، آية 18 .

(3) هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي ، وكنيته أبو الخطاب ، ولد بمكة سنة 23 هـ وتوفي سنة 93 هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك وهو من شعراء الغزل المشهورين ، وقد تغزل في غير امرأة منهم الرباب التي جرى ذكرها في شعره كثيرا كقوله : (ديوانه ص 37) .

لا تخون الرباب ما دمت حيا يا ابن عمي فقد غدرت وخنتا
وقوله : (ديوانه ص 13) :

حيّ الرباب وتربّها أسماء قبل ذهابها
وانظر ديوانه (ص 20 ، 21 ، 30 ، 50 ، 57) .

(4) الذكاء (بالفتح) سرعة الفطنة ، وذكاء (بالضم) اسم الشمس .

(5) الزامل : من التواب النشيط في سيره .

الإسلامية باسم "ثريا" الرومية. وتقول الرواية الإسبانية إن ثريا هذه، واسمها النصراني إيزابيلا وتعرفها الرواية أيضا باسم "زريدة"، كانت ابنة عظيم من عظماء إسبانيا وهو القائد "سانشوا خمينيس دي سوليس" وأنها أخذت أسيرة في بعض المعارك، وهي صبية فتية، وألحقت وصيفة بقصر الحمراء فاعتنقت الإسلام، وتسمت باسم ثريا أو كوكب الصباح، فهام بها السلطان أبو الحسن، ولم يلبث أن تزوجها، واصطفأها على زوجه الأميرة عائشة، التي عرفت عندئذ "بالحرّة" تمييزا لها عن الجارية الرومية، أو إشادة بطهرها ورفع خلالها (1)، أما السلطان فقد كان يقيم مع زوجه الفتية الحسناء في جناح الحمراء الكبير أو قصر قمارش، بينما كانت تقيم الحرّة و أولادها في جناح بهو السباع (2).

وكان السلطان أبو الحسن قد شاخ يومئذ وأتقنته السنون وغدا أداة سهلة في يد زوجه الفتية الحسناء. وكانت ثريا فضلا عن حسننها الرائع فتاة كثيرة الدماء والأطماع، وكان وجود هذه الأميرة الأجنبية في قصر غرناطة، واستئثارها بالسلطان والنفوذ في هذه الظروف العصيبة، التي تجتازها المملكة الإسلامية، عنصرا جديدا في إذكاء عوامل الخصومة والتنافس الخطرة. وكانت ثريا في الواقع تتطلع إلى أبعد من السيطرة على الملك الشيخ. ذلك أنها أنجبت من الأمير أبي الحسن كخصيمتها عائشة ولدين، هما سعد ونصر، وكانت ترجو أن يكون الملك لأحدهما. وقد بذلت كل ما استطاعت من

(1) راجع : Irving : Conquest Granada حيث يورد أقوال الرواية الإسبانية عن شخصية ثريا (الفصل التاسع). ويقول كوندى : إن ثريا كانت ابنة حاكم مرتش نصراني (Conde ; ibid, V III. p.). ولكن الرواية العربية تكفي بالقول بأن ثريا كانت جارية رومية (المقرى في نفح الطيب ج2، ص 608، وأخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر طبعة ميلر ص 6)، ويتفق برسكوت مع الرواية العربية فيقول : إن ثريا كانت جارية يونانية، أي رومية. راجع History of ferdinand and Isabella, p. 213.

(2) كتب هرناندو دي بايزا Hernando de Baeza هذه الرواية المعاصرة بعنوان Las Cosas de Granada "شؤون غرناطة"، ونشرها المستشرق ميلر مع كتاب أخبار العصر (ص 65).

صنوف الدس والإغراء لإبعاد خصيمتها الأميرة عائشة عن كل نفوذ وحظوة، وحرمان ولديها محمد ويوسف من كل حق في الملك، وكان أكبرهما أبو عبد الله محمد ولي العهد المرشح للعرش، وكان أشرف غرناطة يؤثرون ترشيح سليل بيت الملك، على عقب الجارية النصرانية. ولكن ثريا لم تياس ولم تفتّر همتها، فما زالت بأبي الحسن حتى نزل عند تحريضها ورغبتها، وأقصى عائشة ولديها عن كل عطف ورعاية، ثم ضاعفت ثريا سعيها ودسها حتى أمر السلطان باعتقالها، فزجت عائشة مع ولديها إلى برج قمارش، أ منع أبراج الحمراء، وشدّد في الحجر عليهم، وعوملوا بمنتهى الشدّة والقسوة.

أثار هذا التصرف غضب كثير من الكبراء الذين يؤثرون الأميرة الشرعية ولديها بعطفهم وتأييدهم، وكان نذير الاضطراب والخلاف في المجتمع الغرناطي. وانقسم الزعماء والقادة إلى فريقين خصيمين، فريق يؤيد الأميرة الشرعية ولديها، وفريق يؤيد السلطان وحظيته. واستأثر الفريق الأخير بالنفوذ مدى حين، واضطربت الأهواء والشهوات والأحقاد، واشتد السخط على أبي الحسن وحظيته التي أصبحت سيّدة غرناطة الحقيقية، واستأثرت بكل سلطة ونفوذ. وذهبت ثريا في طغيانها إلى أبعد حدّ فحرضت الملك الشيخ على إزهاق روح ولده أبي عبد الله عثرة آمالها.

وكانت الأميرة عائشة امرأة وافرة العزم والشجاعة فلم تستسلم إلى قدرها الجائر، بل عمدت إلى الاتصال بعصبتها وأنصارها وفي مقدّمتهم بني سراج أقوى أسرار غرناطة، وأخذت تدبّر معهم وسائل الفرار والمقاومة، ولم يغفر السلطان أبو الحسن لبني سراج هذا الموقف قطّ، ويقال أنه عمد فيما بعد إلى تدبير إهلاكهم في إحدى أبهاء الحمراء، ولما وقفت الأميرة عائشة من أصدقائها على نية أبي الحسن قررت أن تبادر بالعمل، وأن تغادر قصر الحمراء مع ولديها بأية وسيلة. وفي ليلة من ليالي جمادى الثانية سنة 887 هـ (1482 م) استطاعت الأميرة أن تفرّ مع ولديها محمد ويوسف بإعانة أحد الخدم المخلصين، الذي كان ينتظر مع الجياد على مقربة من الحمراء على ضفة النهر (نهر حدره) مما يلي برج قمارش. واستعانت الأميرة بأغطية الفراش على

الهبوط من نوافذ البرج الشاهق في جوف الليل⁽¹⁾، وهبطت بعد أن أدلت ولديها، ثم اختفى الجميع تحت الظلام.

وهكذا استطاعت هذه الأميرة الباسلة أن تفر من معتقلها في إقدام وجرأة خليقين بأبطال الرجال، واختفى الفارون حيناً حتى قويت دعوتهم وانضم إليهم كثير من أهل غرناطة، وكان اسم عائشة ورفيع خلالها، وقصة فرارها الجريء، تثير أتما عطف وإعجاب. وظهر ولدها الأمير أبو عبد الله محمد في وادي آش حيث مجمع عصبته وأنصاره، وكان السلطان الحسن وقت فرار الأميرة ولديها بعيداً عن غرناطة، يدافع النصاري عن أسوار لوثة، وكانت الحوادث تسير بسرعة مؤذنة باضطرام عاصفة جديدة⁽²⁾.

II - الدراسة :

إذا كان معنى القصة مأخوذاً من الفعل (قصّ الأثر)، فإن ذلك يعني أنها مادة بحث وتحقيق وليست مادة توهم وتلفيق⁽³⁾، ولهذا فإن من جملة الفنون التي عرفها العرب (فن القصة)، وهو فن ينبع من بيئتهم، وصوّر حياتهم وعقائدهم وبطولاتهم ومغامراتهم⁽⁴⁾، فجاءت في بعض زواياها "مرآة للعصر وللبيئة"⁽⁵⁾، بينما الزوايا الأخرى قد حوت خيالاً وشخصاً لنقل ذلك الواقع بعد تزيينه وزخرفته لتنتقل القصة من الواقع المحكي إلى عالم آخر يجعلها تقترب من الفنية، مما جعل (لاروس) يقول عن الحكايات القديمة بأنها قصة، فقال : "إن القصة قديماً حكاية حقيقية أو مصنوعة منظومة أو منثورة، مصبوبة في قالب قصصي، وهي اليوم عمل أدبي من نسيج الخيال

(1) L. del Marmol : ibid; I. Cap. XII. وقد كتب روايته بعد هذه الحوادث بنحو قرن حسبما قدمنا.

(2) نهاية الأندلس ص ص 184 - 187.

(3) انظر : ملاح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، ص 68. وانظر أيضاً الأدب الأندلسي بين الأصالة والتجديد ص 56.

(4) انظر الكتابين السابقين صفحتي 68، 56 على الترتيب في رقم (140).

(5) من (مرايا متجاوزة)، ص 86، انظر أيضاً ص 142.

يصور بالنثر أحداثا متخيلة، مصطنعة منمقة بقصد استثارة القارئ وجذب اهتمامه...⁽¹⁾.

إنذ ما قاله (لاروس) هو نفس الكلام الذي ورد في موسوعة (دي فوربير) وهو :
"أن القصة حكاية مصطنعة، مكتوبة نثرا، تستهدف استثارة الاهتمام"⁽²⁾، وفي قاموس
(النريه) أن القصة رواية واقعية حقيقية، أو مصطنعة، أو هي حكاية ملفقة تستهدف
الإثارة⁽³⁾.

أقول : إذا كان ذلك قد قيل عن (القصة) وأن (الحكاية) قصة، وهذا في رأي الأدباء
الغربيين قبل الدارسين العرب، وكذا يلحق بها (المقامة)⁽⁴⁾، فإن تعريفها ما يزال
يعيش في إشكالية التحديد، فمعظم النقاد الغربيين يعترفون بالقص العربي، بينما العرب
يعزون القصة العربية الحديثة إلى مسببات تعود إلى القص الغربي أو الأوروبي وأنها
- أي القصة الأوروبية - كانت سببا في ظهور القصة الفنية في العالم العربي، وأن ما
قبل هذه المرحلة - أي مرحلة الاعتماد - لا يعد قصة وذلك لخلوها من الخيال وما
يصاحبه من أحداث ملفقة⁽⁵⁾.

وعلى الرغم من هذه الإشكالية في التعريف، فنحن هنا ندرس (القصة
الأندلسية) على أنها قصة عربية قديمة لم يسلط الضوء فيها إلا على قصتي (التوابع
والزوابع) و(حي بن يقظان) ناسين أو متناسين (المقامات) و(القصص الإخبارية
التأريخية) التي تقترب كثيرا من (القصص الفنية)، وذلك لفنية ما يكتب من التأريخ
هناك، فالمؤرخ الأندلسي أديب قبل أن يكون مؤرخا مما جعل الأدب يدخل في التأريخ،
فالصور نجدها في التأريخ الأندلسي متحركة بفعل الأخيلة والصور التي يسبغها

(1) من (القصة العربية القديمة)، ص 20.

(2) من السابق ص 19.

(3) انظر الصفحة نفسها من المرجع السابق.

(4) انظر الأدب القصصي عند العرب، ص 66 - 68.

(5) انظر فن القصة، ص 10.

المؤرخ على كتابه هذا أو ذاك، وقد جاء هذا من واقع اهتمام أهل الأندلس، خاصة المفكرين منهم، بعلم الأدب الذي "به يقترب من مجالس ملوكهم وأعلامهم، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستقل" (1)، ولا يعني ذلك أنه قد خرج عن الطريق التي يسير فيها التأريخ من نقل للحقائق ومتابعتها كما هي، وذلك بميله للأدب وتدعيم تأريخه بأشياء من أدبياته، بل أنه يعني جعل التأريخ أشبه بقطعة أدبية رائعة تسعى في نقل الحقائق ومن ثم تصويرها أو توشيتها بصور واقعية، فإذا التأريخ قطعة أدبية، وهذا ما نجده في معظم كتب التأريخ الأندلسي، ولنا في (المقتبس) لابن حيان، وفي (البيان المغرب) للمراكشي، وفي (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) لعبد الواحد المراكشي.... خير دليل على ذلك.

إن قصصنا المذكورة أنفا قد جمعت بين الأنواع الآتية من أنواع القصص :

- * قصص إخبارية تاريخية.
- * قصة شعرية.
- * قصة لغوية (المقامات).
- * قصة فلسفية (حي بن يقظان) (2).

وهي قصص تختلف في مصادرها بين (التأريخ) كرمز للبلد وللناس، فهو يحكي حياتهم وكل ما يتعلق بهم، فكأننا أمام شخص يحكي بطريقة عفوية ما قد كان، فيجعلنا نعيش ذلك الذي قد كان، بل ونتأثر به وله، وبين (الأشخاص) كمؤلفين سواء أكان هذا المؤلف ناثرا أم شاعرا... على أن المعطيات بين هذه الشخصية أو تلك تختلف في كميتها وفنيتها تبعا للمقدرة أو الموهبة التي يمتلكها أو هي تمتلكه.

إننا في هذه القصص أمام التأريخ وقصصه، والشخص المبدع وما كتبه، والتأريخ من عطاء الإنسان، ولكنه يجمع بين الإنسان والواقع المعاش، بينما الإنسان المبدع قد يتحدث عن ذاته أو عن الواقع حوله، إلا أن مرور الأيام تجمع بين هذا الإنسان والتأريخ فندرسهما كجزء هام من تراث هذه الأمة. إن في هذا الكلام معادلة نصل من

(1) من (النفح)، ج 1، ص 222.

(2) لم يورد الباحث النص لطوله وشهرته وسهولة الحصول عليه في طبعاته العديدة. (هيئة التحرير).

خلالها إلى الربط بين التاريخ والإنسان والأرض، فإذا نحن مع قصص قد أخذت من (التاريخ) الواقعية، ومن (القصيدة) البناء والتماسك، ومن (الرواية) الحدث والشخص، ومن (المسرح) الحوار والدقة في اللفظ، ومن (المقال) منطقية السرد ودقته.....⁽¹⁾ وبذا نجدها قد أخذت الشيء الجميل من الفنون الأدبية الأخرى، وهي إن كانت كذلك فهي "مادة بحث وتحقيق ليست مادة توهم وتلفيق...."⁽²⁾، كما هي مادة : قصدها القاص من خلال تحكمه في سير الشخص والحوادث وتطورها⁽³⁾.

وبعد : فتلك بعض خصائص ما انتقينا من قصص على أن "أية محاولة لتعريفها أو تحديد خصائصها تضطرنا إلى الاقتراب من ألوان أدبية أخرى إن لم تكن قصصا خالصا فهي به أشبه كالأسطورة والمثل والخرافة ومجرد الحكيم...."⁽⁴⁾.

إن الناظر لما انتقينا من نماذج يجد فيها :

- مبدأ الوحدة " وهو أساس جوهري من أسس بناء القصة القصيرة، وهو يشمل وحدة الدافع ووحدة الهدف ووحدة الحدث..."⁽⁵⁾.

- مبدأ التركيز أو التكتيف، وعنصر التركيز من مقومات القصة الرئيسية فوجوده يجعل القصة "تؤثر فينا..."⁽⁶⁾.

- تفاصيل الإنشاء، والتفاصيل يجب أن تكون تابعا لنفس طبيعة القصة على اعتبار

(1) انظر القصة العربية - أجيال وأفاق، ص 6، وانظر ما كتبه الدكتور نبيل راغب عن (الرواية) وأنها تستوعب عدة أنماط من الكتابة مثل (المقالات والخطابات والمذكرات والدراسات التاريخية والوثائق الدينية والمنشورات وأدب الرحلات وكتب اللياقة.... إلى غير ذلك من الأنماط التي تستوعبها الرواية أكثر من القصة). انظر النقد الفني، ص 44، 45.

(2) من : ملامح التجديد في النثر الأندلسي....، ص 68.

(3) انظر : السابق الصفحة نفسها.

(4) من : القصة القصيرة - دراسة ومختارات، ص 91.

(5) من : القصة القصيرة، ص 19.

(6) من السابق، ص 22.

أنها جزء في البناء الكلي... " (1).

وهي وإن كانت كذلك، فإن هذا لا يعني اتفاق هذه النصوص أو انتلافها مع بعضها البعض، بل إن الاختلاف موجود تبعا لتعدد المصادر وتعدد الكتاب (2)، فالتأريخ كمصدر يختلف عن الإنسان كمبدع أو كاتب أو مؤلف.

النص : القالب والمضمون :

أما (النص) فهو تراثي (3).

وأما (القالب) فهو الناحية الشكلية للقصة (4).

وأما (المضمون) فهو يمثل ما كتب ملخصا.

والقالب والمضمون مكملان لبعضهما، فعودتنا لمضمون ما اخترناه من قصص يجعلنا نقف على قالبها دون حاجة لتلخيصها في جانبها المضموني.

إن قصصنا قد تنوعت في أسلوبها حسب تنوع مصدرها، ولذا فإننا سنركز الضوء على القصص الإخبارية التاريخية ثم القصة الشعرية فاللغوية وأخيرا الفلسفية.

أولا : القصص الإخبارية التاريخية :

وهي القصص الغالبة على اختياراتنا، وقبل البدء في تناولها ينبغي أن نعرف أن (القصة الإخبارية التاريخية) هي تلك القصة التي تجمع بين تأريخ الإنسان وعلاقته بالحوادث، وبهذا فقد لاتحفل بالعقدة (5) قدر احتفالها بالصراع الذي يظهر فيها، وهو صراع نفسي أو صراع بين شخصيات القصة، على أن هذا الأمر ليس عاما، فقصصنا

(1) من السابق، ص 24.

(2) انظر : الرواية والتراث السردى، ص 113.

(3) انظر : ما كتب عن (النص) في السابق، ص 128.

(4) انظر : ما كتب عن قالب القصة في (القصة العربية القديمة)، ص 60.

(5) مثل هذه القصص قد تعتمد على شكل الهرم المقلوب، فتأتي (العقدة) أولا، بينما هي في القصص المعروفة (بالقصص الفنية) تأتي غالبا في آخر القصة. انظر مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ع1، رجب 1409 هـ / ص 294.

مصدرها التاريخ الأدبي والمؤرخ الأديب، ولذا فهي تقترب من القصص الفنية إن لم تكن كذلك.

إن مصدر هذه القصص وإن كان متنوعاً، فإن البيئة توحد بينها، تلك البيئة التي انطلقت منها بدافع (الوطنية)، وحب المؤرخ لبلاده⁽¹⁾، وفي هذا الأمر يتساوى المؤرخ الذي عاش في بلاده (الأندلس) وانتمى إليها، والمؤرخ الذي يعيش في بعد عنها، لكنه تفاعل مع تلك البلاد وأهلها فأصبحت جزءاً منه وهو جزء منها، وانعكس ذلك على كتاباته⁽²⁾، ولنا في (الدكتور محمد عبد الله عنان) خير مثال على ذلك، الأمر الذي دفعنا للاستشهاد بقصة من القصص التي حوّاها كتابه (نهاية الأندلس) بالرغم من وجودها في صفحات متفرقة من (النفخ)⁽³⁾.

ال قالب أو الشكل (البناء الفني) :

الناظر لهذه القصص يجدها بسيطة في أسلوبها، مثيرة في عرضها، وجاء هذا من وضوح مضمونها، ذلك المضمون الذي يجعل القارئ يناقش ذاته عند قراءة أي نص من هذه النصوص، فيجد تلك الذات قد أجابت عن أسئلة واضحة مؤداها : "من ؟ أين؟، كيف؟ لماذا؟ فمن الذي اشترك في الحدث؟، وماذا حدث فيه؟ ومتى كان ذلك؟، وأين كان هذا الحدث؟، وما الطريقة التي تم بها؟..."⁽⁴⁾.

إن الذات عندما تطرح مثلاً تلك الاستفسارات، فإن القصة في مضمونها تقترب كثيراً من القصة الصحافية أو التقرير الصحفي الذي نقرأه في صحف هذا العصر، ولكن الطريقة التي اتبعها (مؤرخو الأندلس) ومن سار على نهجهم في عدم الوقوف

(1) انظر : أعلام وأفكار (نظرات في التريخ الثقافي)، ص 114.

(2) انظر النقد الأدبي الحديث، ص 507.

(3) انظر (النفخ)، ج 4، الصفحات 511 - 512، 514 - 515.

(4) من مقال بعنوان : " أدب التأريخ - دراسة في المصطلح والإطار النظري". انظر مجلة جامعة

الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ع1، رجب 1409 هـ، صص 294 - 295.

عند الحدث فقط، بل مناقشة هذا الحدث في كتبهم بكلمة لماذا ؟ ⁽¹⁾، نقول إن تلك الطريقة جعلت هذه القصص الإخبارية تبتعد عن طريق التقارير أو القصص الإخبارية الصحافية وتقترب من القصص الفنية في طريقة العرض لهذا المضمون ومحاولة تكثيف المعاني لتخدم الشخصية التي يتم الحديث عنها، وليجد القارئ أنه قد وقف من خلال أسئلته على "جواب شاف لتعليل الحكم السابق" ⁽²⁾. إن هذه القصص في أسلوبها خاضعة لرأي القارئ الذواق، فإن أرادها قصة فنية فهي كذلك، إذ يجد فيها حبكة وحوارا وصراعا وشخوصا وحدثا إلى غير ذلك مما تتطلبه القصة الفنية الحديثة، وإن لم يُردّها كذلك فهي مجرد قصة إخبارية حوّاها كتاب التاريخ كوسيلة اعتمد عليها المؤرخ في كتابة تاريخه، وليضمن من خلالها (عنصر التشويق) الذي يشد القارئ لمتابعة الحدث، فلا يتمكن الملل من نفسه، فيظل متابعا بل مستريدا بشغف، وإذا كان المؤرخ قد فعل هذا فإن ذلك لا يعني خروجه عن الأطر التي عرفها ككاتب للتاريخ، فقد كان المؤرخ الأندلسي من أحرص الناس على الدقة والتثبت من الحقائق وصياغتها والتأكد الدقيق من صحة كل نقطة، وفحص مختلف الأدلة بغية الوصول إلى نتائج مضبوطة... ⁽³⁾، وهذا الأمر أدى إلى تضيق (الخبر) والاعتماد على القصة الإخبارية المنقولة من الواقع المعاش والمعبرة عنه بأقصر عبارة وأوضح أسلوب.

إننا بعد قراءة هذه القصص نجدّها في أسلوبها بشكل عام حوت الخصائص الآتية :

* أنها قصة وضعت لتقصّ علينا خبرا قد فات وانتهى ومرّت الأيام، وبمرورها تحول هذا الخبر إلى قصة إخبارية تأريخية.

* قصيرة نسبيا.

* ذات خطة بسيطة.

(1) انظر : ما هو التاريخ ؟ ص 97.

(2) من السابق، الصفحة نفسها.

(3) من : تفسير التاريخ، ص 21.

* وحدث محدد حول جانب من جوانب الحياة، لا في واقعها العادي والمنطقي، وإنما طبقاً لنظرة مثالية ورمزية (1).

وبهذا فإن ما يميزها أن طبيعتها متقلبة تأتي حسب الذوق الذي يخضع له الدارس، ولما يقرره الكاتب نفسه يقول (بيتس) : " لا يمكن للقصة القصيرة أن تكون أي شيء يقرره الكاتب » (2) فيمكنها أن تكون صورة وصفية أدبية جامدة وخالية من الحكمة، كما يمكنها أن تتكون من حدث ومن قصيدة نثرية مرسومة أكثر منها مكتوبة إلى نموذج من تقرير مباشر، أو هي حكاية جادة (3)، ولهذا " فإن سبب عدم تعريف القصة القصيرة يكمن بصورة واضحة في مطاطيتها غير المحددة ... " (4).

إن تلك النصوص جاءت في كتب التاريخ بعد تفاعل المؤرخ مع الواقع الذي عاشه بل وتعلق به، فنقل لنا ما شاهده أو عايشه أو سمعه.... مستخدماً في ذلك مجموعة أدلة منها قصصه هذه وما نجده في بعض الكتب التاريخية من حكايات وأخبار وأبيات شعرية.

ولأن المؤرخ قد تفاعل، فإنه حاول أن يركز في أسلوبه عبر قصصه هذه على عدة أمور، منها :

* أن تكون قصصه هذه معبرة عن البيئة التي ينتمي إليها.

* أن تكون شخصيات قصصه من الشخصيات التي يعرفها.

* الاعتماد في بعض الأحيان على الخيال، والخيال هنا ينشطر حول ذاته إلى :

أ- خيال قريب لمن يعايش المؤرخ.

ب- خيال بعيد لمن يأتي بعد عصر المؤرخ، فعند قراءته لهذه القصص يستلهم ذلك

(1) انظر القصة القصيرة - دراسة ومختارات، ص 98.

(2) من : الاعتراف بالقصة القصيرة ، ص 15.

(3) انظر السابق، الصفحة نفسها.

(4) من السابق، الصفحة نفسها.

الواقع ويعايشه بفكره لا بجسمه وروحه، وكأنه في معاشته الفكرية واستلهامه لما قد كان، أمام (فيلم مرئي) يرى عبره الصورة والحركة والشخصيات والموقف... فعند قراءتنا لقصة (الابنة الحكيمة والملوك، أو الخطاب والجندي وما دار بينه وبين الخطاب من محاوراة أو المعارك التي دارت بين جند حسان وتلك الكاهنة وما صاحبها من هزيمة وانتصار وقتل وسلب...، أو عندما نقرأ عن لذريق وكيف كان يجمع البنات والصبيان في حوزته وما اتصف به من جبروت وطغيان وكيف أخذ ابنة يوليان...) نجد أنفسنا نعيش ذلك الواقع بكل ما فيه من مرارة وأحزان، فنستلهم ماكانوا عليه في عصرهم، وكيف كان واقعهم ومعاشتهم له، وشتان ما بين معاشتنا ومعاشتهم، والفرق بين المعاشة يحول (الخيال) إلى (عقدة) في أذهاننا ثم تتحول هي بدورها إلى صراع والصراع في هذه القصص يتحول أيضا إلى عقدة... وهكذا تختلط العناصر في هذه القصص مع بعضها البعض...، فإذا كانت العقدة قد تحولت إلى صراع والصراع إلى عقدة كما هو في قصة (عائشة في السجن) فإننا قد نجد (العقدة) مع الأحداث، فكل حدث عقدة حتى يصل القارئ إلى نهاية هذا الحدث أو ذاك، فأخذ البنات، وخيانة الخطاب، وسجن الملكة ولديها وهربهم من السجن وإخفاء اسم الكاهنة وغيبها ثم ظهورها.... كل هذه عقد، ثم تتحول إلى (حلول) غير متوقعة في غالبيتها كما هو في قصة (الابنة الحكيمة)، تلك القصة التي تمثلت فيها (العقدة) بصورة واضحة، فبدايتها عقدة ووسطها عقدة، وخاتمها عقدة، وحلولها تمثلت في حل واحد ظهر في آخر القصة، وقد تأتي (قصة الملكة عائشة) بعدها.

أقول : إن في ذلك فنية، وفنية الأسلوب في هذه القصص قد جاء من خلال التركيز على الشخصيات، والتحكم فيها حسب واقع هذه الشخصية في القصة، كما جاءت هذه الفنية من خلال تلك العقد التي تظهر أحيانا وتختفي خلف الصراع المصاحب لها في أحيان أخرى...، أما عن الأحداث فهي ممثلة للواقع المعاش.

إننا إذا نظرنا إلى (الأحداث والشخصيات والصراع) في هذه القصص نجدها متداخلة مع بعضها البعض، أما (الحوار) فقد بلغ ذروته في قصة (الابنة الحكيمة) وفي

(الحطاب والنصارى)، كما كان له حضور في قصة لذريق والابنة المخطوفة)، وكذا في (حسان والكاهنة)، وفي (عائشة في السجن).

إن هذا التداخل بين عناصر القصص موضوع قرائتنا قد تم التعبير عنه بواسطة :

- وحدة المكان.

- واللغة السهلة البسيطة.

- والمادة التاريخية.

وذلك بالرغم من تباعد الفترة الزمنية بينها، ولعل هذا التباعد هو الذي منع عن هذه القصص صفة (السرد)، والاستغناء عنه بأسلوب تعبيرى موحد، وهو ذلك "الذي قسمه الناقد (ريدشاردز) إلى أربعة أقسام وهي :

- المعنى

- والإحساس

- والإيقاع

- والقصد... (1)

ثانيا : القصة الشعرية :

بنينة بنت المعتمد بن عباد (2) تحكي واقعها لوالدها، وهو واقع كله ألم وحزن وأسى، فالوالد والوالدة يرسفان في قيودهما في (أغمات) قرب مراکش، والبنينة أسيرة في إشبيلية شراها أحد التجار فيها، البنينة تعرف أين والديها والوالدان لا يعرفان شيئا عن ابنتهما. السؤال يتملك منهما إشفافا عليها، والبنينة حائرة مضطربة لا تعرف أي

(1) من : فن القصة، ص 114.

(2) انظر ما كتب عنها في : النفع... ، ج4، ص 284، وقد كتب عنها الدكتور عمر فروخ في كتابه (تاريخ الأدبي العربي، ج4، ص721)، محددا ولادتها في سنة 463 هـ، ذاكرا بعض مصادر دراسة (ابن عباد وأولاده) في هامش ص 722.

سبيل يوصلها إليهما.

لقد جاءت هذه القصيدة لتبدد السؤال المتمكن من الوالدين ومن ابنتهما أيضا، إنه سؤال حيرة وقلق وحزن وألم وأسى، سؤال يحمل معنى، وكل كلمة فيها مرارة، وبتبديد هذا السؤال تزول العقدة، فالوالدان عرفا أين ابنتهما، أما مشكلة البنت فما زالت حتى يصلها الجواب منها.

بدأت القصة بالفعل (اسمع)، وهو فعل يعبر عن انفعالية، لم تكن متوقعة من ابنة تربت بالأدب الرفيع وعاشت في كنف بيت ملك مع والدين معروفين بالملك وبالأدب، إنها انفعالية اكتسبتها البنت الأسيرة من واقعها الجديد، وهو واقع يختلف عن واقعها السابق، فهي الآن خادمة ومملوكة بعد أن كانت أميرة، وهذه الحالة الجديدة لها أحوالها وظروفها التي تختلف عن أحوال الماضي وظروفه الذي كانت تعيشه. إن الظروف الجديدة أدت إلى نشاط في أخلاق الأميرة مما جعلها تبدأ قصتها بفعل الأمر (اسمع كلامي)، ثم تنثي على هذا بقولها : (استمع لمقالتي)، والمقالة خاصة والكلام عام فكأنما جمعت بين الحركة المنطوقة والكلام المكتوب، ولأنها تعلم أن والديها -خاصة والدها- متقلان بهوم عديدة، وهي هموم تشغل الإنسان عن التفكير في أي وضع آخر، ولذا فهي تحاول لفت انتباه والدها بكلام لم يتعوده من قبل من ابنته الأميرة، وإذا كانت قد فعلت هذا، فإنها لم تنس أن تطمئنه عن وضعها فأنت بكلمة (الأجياد) لتشعر والديها أنها عند أناس هم محل ثقة واطمئنان، وبعد هذا انتقلت لتقص خبرها وما عانته في أسرها ثم كيف حاول من اشتراها أخيرا أن يزوجه ابنه... وأخيرا تطلب من والدها النظر في هذا الأمر:

فعساك يا أبتى تعرفني به إن كان ممن يرتجى لوداد
وعسى رميكية الملوك بفضلها تدعو لنا باليمن والإسعاد
وبهذا، نجد أن القصة بدأت (بأمر) وانتهت، (برجاء) ودعوة وأمل، والأمر والرجاء قد حملا بينهما مفاجأتين هما :

المفاجأة الأولى : معرفة الوالدين بحياة ابنتهما، وأنها تعيش لدى أسرة يعتقد أنها من

الأسر الكريمة.

المفاجأة الثانية : معرفة التاجر أن أسيرته ابنة ملوك.

والمفاجأتان كلتاهما تحملان أسى وحزنا، فالوالدان قد حزنا - مع شدة فرحهما بأخبار ابنتهما وأنها حية - من الواقع الجديد لهذه الابنة المسكينة وما تعرضت له من إهانة وذل وأسر، وهذا الحزن قد قتل الفرح بحياتها ولكن لا بد من الاستسلام للواقع المرير.

أما حزن التاجر، فقد كان نتيجة لواقع هذه الأسيرة وكيف أن ابنة الملوك قد أصبحت من الممتلكات التي تباع وتشترى. وهنا نجد أن المفاجأة قد غطت على حزنه وعدم ذهوله وذهول ابنه.

إن هذه القصيدة الشعرية (القصة) تتضح معاناة، فملك ضاع، وعائلة تفككت بين سجن وأسر.

أميرة تباع وتشترى.

وملك يؤخذ رأيه مع أنه لا يملك من حيلة لتخليص نفسه قبل ابنته، فكان رأيه الآتي فيما بعد مجرد تحصيل حاصل.

مجموعة أمور محيرة تتملك من الابنة ومن التاجر وابنه، ومن الملك وزوجته اعتماد في سجنهما.

لقد جاءت هذه القصة الشعرية (القصيدة) لنتهي العقدة التي أثارَت مجموعة أسئلة من قبل الوالد المكبل بالقيود والوالدة التي لا تملك حيلة، والتاجر الذي تفاجأ بالواقع الجديد وكذا ابنه.

الأحداث تتلاحق بانفجار القصيدة (القصة)، ولكن هذا الانفجار أدى إلى بركان محير من الأسئلة وإن كان الظاهر الفرح، لكن الباطن الحزن المتملك من نفس الوالدين والابنة الشاعرة.

فإذا كانت عقدة السؤال عن الابنة قد جاء حلها بعد وصول القصيدة، فإن عقدة البنات قد حلت بعد أن وقف والداها على القصيدة، " فسرّ هو وأمها بحياتها ورأيا أن ذلك

للنفس من أحسن أمانياتها، إذ علما مأل أمرها، وجبر كسرها، إذ ذلك أخف الضررين، وإن كان الكرب قد ستر القلب منه حجاب رين...⁽¹⁾، ثم يكتب لها الوالد مشعرا إياها بمواقفته على زواجها من ابن التاجر⁽²⁾ :

بنيتي كوني به برّة فقد قضى الوقت بإسعافه
وبعد وصول هذا الرد من الوالد "تزوجت من رجل دونها طبقة ومستوى"⁽³⁾.

إننا بعد قراءة القصيدة وجدنا أنفسنا أمام قصة مأسوية فيها صراع نفسي مرير ومفاجأة في الأحداث والمواقف، فالتاجر بعد أن علم أن أسيرته ابنة ملك لم يكن يتوقع موافقة الوالد على زواجها من ابنه، والبنت لم تكن تتوقع الموافقة أيضا من قبل والدها، فكانت الموافقة بالموافقة طالما أن هذا هو الوضع ولا حيلة لتغييره.

والقصة فيها عقدة بل مجموعة عقد نفسية تفككت بصورة متتالية، وكان آخر الحلول ما جاء من الوالد عبر رسالة حوت البيت الشعري المذكور آنفا. والقصة فيها حلول تعددت بتعدد المشكلات.

أقول : إذا كانت القصة ترجمانا حقيقيا لما يعانيه الكاتب أو المجتمع، فإن قصيدة بثينة لوالدها عبارة عن قصة معاناة استخدم فيها الشعر بدلا من النثر، ولذا نجد أن كل كلمة فيها تحمل معاناة، وأية معاناة!!؟

إننا بعد استعراض هذه القصة القصيدة نجد أن (المبادئ الكلية) التي تحدث عنها الدكتور مفتاح في كتابه (ديناميكية النص - تنظير وإنجاز) قد تمثلت فيها، إذ نجد⁽⁴⁾ :

* المقصدية.

* والتفاعل.

(1) من النفع....، ج4، ص 285.

(2) انظر : السابق، الصفحة نفسها.

(3) من الشعر الأندلسي في عصر الطوائف...، ص 376.

(4) انظر : ديناميكية النص....، ص 50 - 52.

* والتملك.

* والتوليد.

* والزمان.

* والانسجام.

ثالثاً : القصة اللغوية (المقامة)

القالب..... والمضمون :

أما (المضمون)، فقد دار حول الوصف الذي ينقلب إلى مدح، وهذان غرضان معروفان في الشعر العربي، ولذا نرى أن (الوادي آشي) في مقامته هذه قد زاحم الشعر في أخص ميادينه ⁽¹⁾، الأمر الذي جعل المقامة في مضمونها تسير على نهج القصيدة العربية القديمة، إذ نجد فيها العناصر الآتية :

مقدمة أشبه بالمقدمة الطللية التي عرفتھا القصيدة الجاهلية، إذ حاول الكاتب أن يجعل راويته (فتح بن ميسور) يتعرف على فتى يعرف (بابن منصور) ذلك الذي " يسعى في ميدان الفصاحة فتحمد مساعيه ويدعو باسم البلاغة فتجيب دعوة داعيه... » ⁽²⁾،

والكاتب بهذه المقدمة كنى عن فقدان اللغة العربية التميز في بلاده بفعل مضايقة النصارى لتلك البلاد، ولكثرة الاختلاط بالأجناس التي لا تتقن اللغة العربية، فأصبح التميز فيها مثل بقية الأطلال التي يتغنى بها الشاعر الجاهلي ومن قلده.

ثم انتقل بعد هذه المقدمة إلى وصف كل ما مر به، ولم ينس راحلته، وذلك عندما جد في السير للبحث عن (ابن منصور) الذي فقدته بعد أن لازمه ليتعلم عنه البلاغة العربية، إذ نجده يقول : "حتى حكم الدهر ببعده وفراقه، فنجدت وعرق، وغربت

(1) انظر : ملامح التجديد في النثر الأندلسي.....، ص 187.

(2) انظر : المقامة.

وشرّق... (1)،

ثم يقول : "فشحذت نصل حزمي للرحلة" (2). وبعد وصفه لكل ما مر به قال عن راحلته : لها أذن مؤلفة كبرية القلم أو كأطراف الجلم، وبشرة عسجدية، وحوافر زبرجدية.... (3):

محبوكة الظهر لم يخنها لصوق بطن منها خميص
كالقوس في شكلها ولكن تنفذ كالسهم للقنيص
على أن الكاتب في مقامه هذه قد أطل في وصف راحلته ومن تحمله، ثم من قابل في طريقه، وهو من كان يبحث عنه، قال : "قدنوت من مطيته لأعلم كنه طيته، وسلمت وسلم...." (4)، ولكنه لم يفصح للقارئ عن هذا الشخص إلا في آخر المقامة، إذ نجده يقول : "وقلت سعد ؟ قال : سعد، جمعتنا الليالي على غير وعد، والأمر لله من قبل ومن بعد، غبت وشبت وصرت أبا البنين...." (5)، وهو بهذه الطريقة يشوّق القارئ لمتابعة مقامته.

والكاتب في هذه المقامة قد جعل من هذا الوصف الذي ضمنه مقامته هذه سبيلا للخلوص إلى الموضوع المراد، فقد انتقل راويته مع (سعد بن منصور) بعد أن لقيه فجأة - ولم يعرفه بعد - إلى الحديث عن القائد (أبي عبد الله بن ميمون)، حيث تحدث حديثا وصفيا عن ذلك القائد وما اتصف به من البطولة والخلق الرفيع.

إن مضمون المقامة قد سار على ما ذكرناه بطريقة منطقية لا نشعر فيها بفجوات، فكأن الإحكام الذي عرفته القصيدة العربية القديمة قد نقله (الوادي آشي) إلى مقامته بصورة متميزة، وبهذا فإن ما يسري على القصيدة القديمة من أحكام نقدية قد تنطبق

(1) انظر : المقامة.

(2) انظر : المقامة.

(3) انظر : المقامة.

(4) انظر : المقامة.

(5) انظر : المقامة.

على هذه المقامة، الأمر الذي جعل (شولتز) يشبه المقامة بالقصيدة من حيث أنواعها المتعددة⁽¹⁾، والأنواع هنا غير الناحية الفنية والنهج الذي سار فيه صاحب المقامة موضع درسنا، وكل ما يفرق بين المقامة والقصيدة الشعرية التي لا تحوي قصة وجود الحبكة والراوي (الفتح بن ميسور) والبطل (سعد بن منصور)، و"السرود المنطوي على تسلسل وتطور الحدث أو الحوادث حتى الذروة بنسيج في عقدة متماسكة لا تلبث أن تتحلل..."⁽²⁾.

وبهذا فنحن أمام (قصة) نجدتها تلتزم بقواعد فنية قد لا نجدها في معظم مقامات (الهمذاني)⁽³⁾.

قالب المقامة :

لقد جمعت هذه المقامة في أسلوبها بين الطرافة القصصية والبلاغة الأدبية⁽⁴⁾ دون مغالاة أو تصنع في الصياغة اللفظية، بل حسب ما يقتضيه واقع المقامة، وهو واقع تغلب عليه الصفة الأدبية مما جعلها تبدو أكثر إشراقا من مقامات الهمذاني، وفي ذلك دلالة على أن معظم مفكري الأندلس ومنهم (الوادي آشي) قد بدأ من حيث انتهى المشاركة، ولكنهم مع ذلك - خاصة كتّاب المقامات منهم - قد التزموا بالقواعد الأساسية التي سارت عليها المقامة العربية في أسلوبها، وذلك من حيث :

- البطل الوهمي الذي يتميز بموسوعية ثقافية.

- الراوية.

- الحدث.

(1) انظر : السوسيولوجيا والأدب، ص 125.

(2) من : مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص 27.

(3) هو : أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني، اشتهر باسم (بديع الزمان الهمذاني)، ولد في (همدان) عام 358 هـ، وتوفي في (هراة) عام 398 هـ. انظر ما كتب عنه في كتاب (مقامات بديع الزمان الهمذاني)، ص 21 وما بعدها.

(4) انظر : السابق ص 27 و ص 33، وانظر أيضا : فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص 57.

- السرد.

- إظهار المقدرة اللغوية.

إلا أن مقامة (الوادي أشي) لم يكن همها إظهار المقدرة اللغوية قدر اهتمامها بالتركيز على الصيغ الأدبية التي تظهر وصف الشخصية أو المكان أو الشيء المراد وصفه، وبذلك فإن الوصف كان شبه رابط بين المواضيع المختلفة التي ذكرناها في المضمون.

لقد جاءت هذه (المقامة) "في أسلوب قصصي شائق" ⁽¹⁾ يعكس لنا ثقافة البطل والراوية، إذ قسمت البطولة بينهما مما شكل (عقدة) في المقامة وهي عقدة ركزت أساسا على شخصيات المقامة.

إن المشكلات التي ظهرت لنا من خلال غياب (سعد بن منصور)، ثم البحث عنه طويلا، وبعد ذلك التعرف على ما يتصف به القائد ابن ميمون مع جهل الشخصية المتحدثة عن هذه الشخصية من قبل (الفتح بن ميسور).... كل هذه عقد أو مشكلات وقد حلت بالترتيب.

إذا أسلوب المقامة قام على الآتي :

1- الحدث : وقد اعتمد على الوصف الدقيق للشخصيات وللمكان وللراحلة، وهو حدث غير ثابت، بل يتغير ويتطور تبعا للموصوف.

2- العقدة : وقد ظهرت خاصة مع البطل.

3- الشخصيات : وتنقسم إلى :

* شخصيات لها دور في المقامة (فتح بن ميسور وسعد بن منصور).

* شخصيات يدور حولها الحديث وتتمثل في سعد بن منصور عند فقده، والقائد (ابن ميمون) عند وصفه.

* شخصيات لها ظهور محدد، مثل صاحب الخيمة.

(1) من : القصة القصيرة - دراسة ومختارات، ص 57.

* شخصيات كونت صراعا داخليا لدى الراوي (ابن ميسور) مثل شخصيتي (ابن منصور) و(ابن ميمون).

4- الحوار : وهو من مستلزمات هذه المقامة لتعدد شخصياتها، ولانتقال الراوي إلى أماكن عديدة (1).

والحوار في هذه المقامة قد يكون نفسيا معتمدا على (الصراع الداخلي)، وقد يكون غير ذلك مثل قوله : "سَلِمْتُ وَسَلَّمْ، وتَأَوَّه وتَأَلَّمْ، وقال... (2)، وقوله : "وقال : مرحبا بالسَّراة السَّراة وبالأجوه الوجوه.... (3)، وقوله : "ظلت أسائل.... فقال، ذلك رجل ماجد... (4)".

إن (الوادي آشي) قد جمع في مقامته هذه عناصر القصة معتمدا في ذلك على لغة سهلة، متبعا الأسلوب المعروف في المقامة، وهو أسلوب يعتمد على السجعة، إلا أنها غير متكلفة في هذه المقامة، كما أن أسلوبه قد كان مشرقا من خلال اعتماده على الأشعار والآيات القرآنية الكريمة التي ظهرت بين ثنايا سطور مقامته هذه (5).

إن (الوادي آشي) بأسلوبه هذا في مقامته هذه قد جعلها تتفق مع المقامات المشرقية في العناصر الأساسية، وتختلف عنها في التناول وعدم تركيزها على ما يتعلق بالمجتمع، وتفرداها في التركيز على ذات الفرد، وقد يختلط هذا الفرد مع المكان والزمان، كما تختلف عن المشرقية في عدم التركيز على إظهار المقدرة اللغوية بقدر تركيزها على الشخصيات المراد الحديث عنها.

(1) وقد أسماها الدكتور يوسف نور عوض، بفكرة (الغربة) وذلك عند حديثه عن المقامات الهمدانية.

انظر : فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص118.

(2) انظر : المقامة.

(3) انظر : المقامة.

(4) انظر : المقامة.

(5) انظر : الأدب القصصي عند العرب ص 344.

رابعاً : القصة الفلسفية (حي بن يقظان)

لا تذكر بلاد الأندلس ولا يذكر فكرها إلا ويقترن كل ذلك ببعض الإنتاج الإبداعي ومنها (قصة حي بن يقظان)، ولهذا فقد احتقل بها الكثير من النقاد والدارسين، بل عدوها أفضل قصة كتبت في العصور الوسطى لما حوته من "تضج قصصي في الشرح والتبرير والإقناع..."⁽¹⁾ ولما فيها من اعتناء بالتحليل النفسي للأشخاص وللمواقف⁽²⁾.

إن قصة (حي بن يقظان) لم تأت بهذه الصورة إلا بفعل تميز كاتبها فقد صاغها صياغة فنية أعجبت الفلاسفة وأرضت الأدباء⁽³⁾.

المضمون..... والقالب :

لسنا في حاجة لتلخيص مضمون القصة، ذلك لأن "تلخيصها لا يغني عن قراءتها..."⁽⁴⁾، ويعود ذلك إلى كونها خلاصة تجربة وحصاد تفكير⁽⁵⁾ لهذا الفيلسوف الأندلسي، والوقوف على خلاصة التجارب وحصاد التفكير لا يتأتى عن طريق الملخصات.

إن معاشة الواقع الذي عاشه (ابن طفيل) في عصره وما كان يدور في ذلك الواقع من مشكلات "شغلت بال الفلاسفة المسلمين قبل (ابن طفيل) وبعده مدة طويلة..."⁽⁶⁾، ومن أهم هذه المشكلات مسألة التوفيق بين الدين والفلسفة⁽⁷⁾.

(1) من : النقد الأدبي الحديث، ص 497.

(2) انظر السابق، ص 464. وقد عدّ هذه الخاصية من خواص القصة الواقعية في العصر الحديث.

(3) انظر الأدب الأندلسي - موضوعاته وفنونه، ص 703.

(4) من السابق، الصفحة نفسها.

(5) انظر : السابق، ص 687.

(6) من : الأدب القصصي عند العرب، ص 412، وانظر : تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ص 625.

(7) انظر : السابق (الأدب القصصي عند العرب) الصفحة نفسها.

إن ابن (طفيل) قد حاول معالجة هذه القضية من خلال تطرقه "لقصة الحياة بكل تفاصيلها" ⁽¹⁾ وذلك عبر قصة خيالية" ضمنها كل ما لديه من ثقافات ومعارف مختلفة، فهو فيلسوف ومتصوف وطبيب وفلكي وأديب..." ⁽²⁾، متعمدا في ذلك على عناصر عربية إسلامية صوفية خالصة" ⁽³⁾، ولهذا نجد أن هذه القصة في مضمونها «تزخر بالآيات والتعبيرات القرآنية والروح الإسلامية الصوفية..» ⁽⁴⁾.

إن مضمون القصة يوحي للقارئ أن الكاتب قد تأثر قبل وأثناء كتابة قصته بالآتي :

* الآية القرآنية الكريمة (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) "المؤمنون، آية 12"، وذلك عندما تصور أن طينا تخمر وتخلق منه (حي).

* قصة موسى عليه السلام وأمه، وما ورد بشأنهما في القرآن الكريم (5).

* ما أورثته بعض كتب التاريخ العربي من خبر هارون الرشيد مع أخته العباسية ووزيره جعفر البرمكي، "وأنه كان لا يستطيع الصبر عن لقائهما فقال لجعفر : أزوّجها لك ليحلّ لك النظر إليها ولا تقربها، فقال : نعم، فزوّجها منه وكانا يحضران لديه معا، وكان الرشيد يتركهما في بعض الأحيان، فحملت العباسية من جعفر وخافت الرشيد فسيرت ابنها مع حواضن إلى مكة (6).

* تحكّم الخرافات في أذهان بعض العامة، وبعد رجال الدين عن الواقع

(1) من : ملاحم التجديد في الفكر الأندلسي....، ص 99.

(2) من : السابق الصفحة نفسها.

(3) من : عصر الذول والإمارات، ص 516.

(4) من : السابق الصفحة نفسها.

(5) قال تعالى : (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ، أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ...) سورة طه، آية 38 - 39.

(6) الحكاية هنا منقولة من : عصر الدول والإمارات، ص 516، والقارئ للقصة وهذه الحكاية يرى أن الصلة بينهما واضحة بين ميلاد (حي) سرا من أخت الملك وميلاد ابن العباسة سرا عن الرشيد ومحاولة كل منهما تهريب المولود : انظر السابق الصفحة نفسها.

ومناصحة الناس.

ولأن (ابن طفيل) فيلسوف، ويعتقد أن العامة فساد على الأخلاق، فقد انتقل عبر رحلة خيالية لمناقشة هذا الوضع المعاش، جاعلا التفكير ميدان هذه الرحلة، والفلسفة زادها، والمنطق راحلتها، مختارا شرق الكرة الأرضية (الهند) كمكان للخرافات، وليجعلها رمزا لما حل في بلاده، بادئا قصته بخرافة المولد، ومنهيا إياها بالتسليم، وأن هناك خالقا يتصرف في الكون، وأن من يحمل عقلا سيهتدي لهذا الأمر مشيرا إلى العلاقة بين الدين والفلسفة.

إن (ابن طفيل) في مضمون قصته قد اتكأ على :

* قصص قرآنية كقصة موسى عليه السلام.

* أحاديث نبوية شريفة كحديث الرسول صلّ الله عليه وسلّم : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه..."⁽¹⁾، ثم يقول أبو هريرة : واقروا إن شئتم : (فِطْرَةُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ....) "الروم، آية 30".⁽²⁾

* قصص خرافية (قصة حنين بن إسحاق، وهي منقولة عن اليونانية).⁽³⁾

* قصص فلسفية مشابهة (مثل قصة حي بن يقظان لابن سينا - والسهروردي)⁽⁴⁾.

إن ابن طفيل قد استطاع عبر هذه القصة الخيالية أن ينجح في إيضاح العلاقة بين العقل والشريعة وأنه لا تقاطع بينهما⁽⁵⁾، وذلك بأسلوب قصصي مشرق معتمدا في ذلك على عناصر قصصية مكنته من الهدف الذي كان يسعى إليه⁽⁶⁾، على أن أهم

(1) صحيح مسلم، ج 4، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.....، ص 2047.

(2) من السابق، الصفحة نفسها.

(3) انظر تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ص 625.

(4) انظر السابق ص 626.

(5) انظر السابق، ص 512.

(6) انظر الأدب القصصي عند العرب، ص 412.

عنصر استخدمه في هذه القصة (الرمز)، فبطل القصة (رمز)، ومكان القصة (رمز)، وحوادثها (رموز)، وشخصيتها (رموز).

إن (ابن طفيل) لم يكن هدفه من التركيز على (الرمز) في قصته الهرب من الواقع المعاش بقدر ما هو محاولة للوصول إلى غاية كان يهدف إليها، فقد نهج في هذه القصة هذا النهج القصصي الرمزي الأسطوري لمحاولة "إيصال المعرفة الإشرافية إلى القارئ" (1)، وهذا لا يحصل "بإحراز العلوم ومطالعة الكتب، وإنما بالسلوك والرياضة والذوق..." (2).

إن ما حوته هذه القصة من عناصر قصصية تمثلت في (الحدث والمكان والأشخاص) (3) لم تأت بقصد من الكاتب وأنه يكتب قصة، وإنما جاءت كجسر مضي عليه ليوصل من خلاله معلوماته إلى قارئ قصته، ويحقق بها هدفا معينا سعى إليه (4).

(1) انظر السابق، ص 415.

(2) انظر السابق، الصفحة نفسها.

(3) وقد فصل الدكتور (عمر فروخ) في كتابه (تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون) القول حول شخصيات القصة موضوع درسا وتعددها. انظر : الكتاب، ص 634.

(4) لسنّا في حاجة لتفصيل هذه العناصر التي وردت في (قصة حيّ بن يقظان)، فقد درست القصة وما حوته من عناصر في كتب عديدة أشرنا لبعضها، والبعض الآخر لا نعتقد غيابه عن ذهن القارئ، مثل : النثر الفني في القرن الرابع الهجري للدكتور زكي مبارك، وكتيب (ابن طفيل) للدكتور مصطفى غالب.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم :

أدهم، علي..... : المعتمد بن عباد، صدر ضمن سلسلة أعلام العرب عن المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت. عدد 2، بدون تاريخ.

بالنثيا، أنخل : تاريخ الفكر الأندلسي. ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، 1955.
بيرييس هنري.... : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف - ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمه التوثيقية، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكسي، دار المعارف، مصر. الطبعة الأولى، 1408 هـ.

التمساني، الشيخ أحمد بن محمد المقرئ : فنج الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه الدكتور إحسان عباس، دار صادر بيروت 1388 هـ.

الحسين الدكتور قصي... : السوسيولوجيا والأدب: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1413 هـ.

الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد الله.... : صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار. عنى بنشرها ليفي بروفنسال، دار الجيل بيروت، ط2، 1408 هـ.

حورشيد، فاروق... : في الرواية العربية - عصر التجميع. دار الشروق، بيروت، ط3، 1402 هـ.

الدوري، الدكتور عبد العزيز الدوري وآخرون : تفسير التاريخ، صدر ضمن منشورات مكتبة النهضة، بغداد.

راغب الدكتور نبيل : النقد الفني، صدر ضمن سلسلة كتابك عن دار المعارف، 1981.
الزركلي، خير الدين... : الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال... دار العلم للملايين ط9، 1990.

سالم الدكتورورة نبيلة إبراهيم... : نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة.

النادي الأدبي بالرياض، الطبعة الأولى، 1410هـ.

سعد فاروقى.... : مقامات بديع الزمان الهمذاني، قدم لها ونسقها وشرحها فاروق

سعد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1402هـ.

سليمان موسى.... : الأدب القصصي عند العرب - دراسة نقدية. دار الكتاب اللبناني

والمكتبة المدرسية، الطبعة الخامسة 1983.

السيوفى الدكتور مصطفى... : الأدب الأندلسي بين الأصالة والتجديد. 1405 هـ.

السيوفى الدكتور مصطفى... : ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس

الهجري. دار عالم الكتب بيروت، 1405 هـ.

الشكعة، الدكتور مصطفى.... : الأدب الأندلسي - موضوعاته وفنونه. دار العلم

للملايين، بيروت، ط4، 1983،

الشوباشي، محمد مفيد..... : القصة العربية القديمة. صدر ضمن سلسلة دراسات

أدبية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986.

ضيف الدكتور شوقي..... : عصر الدول والإمارات (الأندلس). دار المعارف،

القاهرة.

عصفور، جابر..... : المرايا المتجاورة - دراسة في نقد طه حسين. صدر

ضمن سلسلة دراسات أدبية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983.

العربي، كتاب..... : القصة العربية - أجيال وآفاق. صدر ضمن سلسلة كتاب

العربي (الكتاب الرابع والعشرون)، الكويت 1989.

العلمي، عمادة البحث..... : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. صدرت

عن عمادة البحث العلمي، الرياض، العدد الأول، رجب 1409.

عنان الدكتور محمد عبد الله... : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتتصرين. الطبعة

الرابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة 1408 هـ.

عوض، الدكتور يوسف نور.... : فن المقامات بين المشرق والمغرب. دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى 1979.

عيسى الدكتور فوزي سعد... : رسائل أندلسية. تحقيق الدكتور فوزي سعد عيسى، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط1، 1989.

غالب، الدكتور مصطفى... : ابن طفيل. صدر ضمن سلسلة في سبيل موسوعة فلسفية عن دار مكتبة الهلال بيروت، 1405هـ.

الغانمي، سعيد..... : اللغة والخطاب الأدبي. اختيار وترجمة سعيد الغانمي، صدر عن المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1993.

فروخ، الدكتور عمر... : ابن طفيل وقصة حي بن يقظان، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت 1402هـ.

فروخ الدكتور عمر.... : تاريخ الأدب العربي، ج4. دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، 1984.

فروخ الدكتور عمر.... : تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون. دار العلم للملايين الطبعة الرابعة، 1983.

فيللو، كارلوني وفيللو... : النقد الأدبي. ترجمة كيتي سالم، صدر ضمن منشورات عويدات، بيروت وباريس، ط2، 1984.

قاسم الدكتور قاسم عبده قاسم والدكتور الهواري.... : الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث. دار المعارف، مصر 1979.

كار، إدوارد..... : ماهو التاريخ؟. تعريب ماهر الكيالي وبيار عقل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، الطبعة الثانية 1980.

اللميلم، الدكتور عبد العزيز.... : حسان بن النعمان الغساني ودوره في فتح بلاد المغرب. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة 1413هـ.

لوهافر، سوزان..... : الاعتراف بالقصة القصيرة. تعريب محمد نجيب لفته، صدر عن دار الشؤون الثقافية العامة ضمن سلسلة المائة كتاب الثانية. بغداد، 1990.

مبارك الدكتور زكي.... : النثر الفني في القرن الرابع. دار الجيل، بيروت.

المراكشي، ابن عذاري.... : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1983.

مريدن، الدكتورة عزيزة..... : القصة الشعرية في العصر الحديث. دار الفكر، دمشق الطبعة الأولى، 1404هـ.

مفتاح، الدكتور محمد..... : دينامية النص، - تنظير وإنجاز. صدر عن المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثانية 1990.

مكي، الدكتور الطاهر..... : القصة القصيرة. دراسة ومختارات. دار المعارف، الطبعة السادسة، 1992.

نجم الدكتور محمد يوسف..... : فن القصة. دار الثقافة، بيروت الطبعة السابعة 1979.

النساج، الدكتور سيد حامد..... : القصة القصيرة صدر ضمن سلسلة كتابك عن دار المعارف في مصر.

النيسابوري، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري..... : صحيح مسلم. رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض 1400هـ.

هلال الدكتور محمد غنيمي..... : النقد الأدبي الحديث. دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 1979.

هويزنجا، يوهان..... : أعلام وأفكار (نظرات في التاريخ الثقافي). ترجمة عبد العزيز جاويد، مراجعة الدكتور زكي نجيب محمود، صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1971.

يقطين، سعيد..... : الراوية والتراث السردي. المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1992.